"The money and children" in the book "Misers" by Al-Jahidh

Laila Al-Abidi (PHD)

University of Sharjah - College of Arts, Humanities and Social Sciences- Sharjah - United Arab Emirates

labidi@sharjah.ac.ae

DOI: https://doi.org/10.31973/aj.v1i142.1692

Abstract:

In Al-Bukhala by Al-Jahidh, the family plays an important role. It attracted our attention immediately, and we noticed that, despite its relevance, it did not receive an independent study in all published research on the book in the Arabic, French and English languages. Therefore, we decided to devote to it this article, which we worked on, to monitor all the anecdotes, sayings and news related to the family, wife and children in Al-Jahidh's book, then analyze and interpret them based on what modern knowledge provides us with in sociology, psychology, anthropology, philosophy and other knowledge in order to reach a comprehensive scientific understanding of the miser's behavior toward those closest to him, especially his wife and dependents, on the one hand, and his representations of them based on his (egotism) centrality, which is inextricably linked to the centrality of money "the pole on which the world revolves" in his social philosophy on the other.

If money is the compass that leads him to everything including himself, then how about his wife and his dependents. We realized that this would not happen without it having repercussions on his psyche and behavior, diverting him from the norm and from the habit, and without reflecting on his relationship with the people closest to him. A complex relationship that we have worked to dismantle and uncover the dialectical dualities that organize it: love and hate - connection and separation - attraction and alienation - exclusion, integration and other dualities.

Keywords: Genetics - development - wealth - poverty - dirhams - scarcity - death.

"المال والعيال" في كتاب "البخلاء" للجاحظ

أستاذ مساعد د. ليلى يونس العبيدي
جامعة الشارقة – الشارقة – الإمارات العربية المتحدة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

(مُلَخَّصُ البَحث)

للعائلة منزلة مهمّة في كتاب البخلاء للجاحظ لفتت انتباهنا بشدّة ولاحظنا أنّها على أهمّيتها لم تحظ على حدّ علمنا بدراسة مستقلّة بذاتها في كلّ البحوث المنشورة حول الكتاب في اللغات العربيّة والفرنسية والانجليزية ولذلك رأينا أن نخصّص لها هذا المقال الذي عملنا فيه على أن نرصد كلّ النوادر والأقوال والأخبار التي تتعلّق بالأهل والزوجة والعيال في مؤَلّف الجاحظ ثمّ تحليلها وتأويلها بالاعتماد على ما تتيحه لنا المعارف الحديثة في الاجتماع والنفس والأنتروبولوجيا والفلسفة وغير ذلك من المعارف للوصول إلى بلورة فهم علميّ شامل لسلوك البخيل تجاه أقرب الناس إليه، لا سيّما زوجته وعياله من ناحية وتمثّلاته لهم انطلاقا من مركزيته الذاتيّة (الأناويّة) التي لا تنفصل عن مركزيّة المال" القطب الذي تدور عليه رحى الدنيا" في فلسفته الاجتماعيّة.

وإذا كان المال– وما سواه محال – هو البوصلة الذي تقوده إلى كلّ شيء بما في ذلك نفسه، فما بالك بزوجته وعياله، أدركنا أنّ ذلك لن يحدث دون أن تكون له انعكاسات على نفسيته وسلوكه يشذّ به عن القاعدة ويخرج به عن العادة ودون أن ينعكس على علاقته بأقرب الناس إليه، علاقة مركّبة عملنا على تفكيكها والكشف عن الثنائيات الجدليّة التي تنتظمها : حبّ وكره– اتّصال وانفصال– اجتذاب وانتباذ– إبعاد وإدماج وغيرها من الثنائيات.

الكلمات المفتاحية: الوراثة – التنمية – الغنى – الفقر – الدرهم – النادرة – الموت.

توطئة

يظلّ كتاب البخلاء للجاحظ رغم مرور أكثر من عشرة قرون على كتابته مَعينا لا يَنْضب بالنسبة إلى الباحثين في شتّى الاختصاصات، في النقد الأدبي واللساني وفي العلوم الاجتماعية والاقتصادية والفقهيّة والكلاميّة والفلسفيّة. هذا الكتاب هو بالأساس مدوّنة أدبيّة ساخرة من أهدافه إمتاع القارئ وإضحاكه مثله في ذلك مثل كلّ المدوّنات الأدبيّة العالمية الشهيرة التي أُلّفت بعده بقرون عديدة واتخذت من البخلاء موضوعا للسخرية والإضحاك

مثل "البخيل" لموليار (Molière) و"تاجر البندقيّة" لشكسبير [١] Shakespeare وغيرهما. وقد عبّر الجاحظ عن هذه الغاية الأدبيّة الهزليّة في مقدّمة كتابه دون أن يتعامى عن الجوانب الأخرى الفقهية والكلامية والاجتماعيّة والاقتصادية التي تُصنّف عادة ضمن خانة الجدّ مع التأكيد في ذات الوقت على الارتباط الجدليّ الشديد بين الهزل والجدّ لكون الواحد منهما في كتابه يحيل بالضرورة على الآخر، تارة على لسان أحد قرائه الذي دعاه قائلا" اذكر لي نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء وما يجوز من ذلك في باب الهزل وما يجوز منه في باب الجد لأجعل الهزل مستراحا والراحة جَماما فإن للجدّ كَدّا يمنع من معاودته ولا بد لمن التمس نفعه من مراجعته (الجاحظ، البخلاء، ١٩٩٩، ص ٧) وطورا على لسانه مؤكّدا: " ومتى أريد بالمزح النفع وبالضحك الشيء الذي له جُعل الضحك صار المزح جداً والضحك وقاراً (الجاحظ، البخلاء، ١٩٩٩، ص ١١) .

لقد لفتت أهميّة كتاب البخلاء في العصر الحديث انتباه الكثير من الباحثين العرب والمستعربين، لعلّ أشهرهم هو الفرنسي شارل بيلا (Charles Pellat) الذي أُغرم به منذ شبابه الأوّل وبدايات تعلّمه للغة العربيّة ودراسته للأدب العربي القديم[٢] (Charles, 2007, p.30) (الجويلي، ٢٠١٩، ص ٣٨-٣٩) وأوحى له لاحقا بكتابة الكثير من المقالات في دائرة المعارف الإسلاميّة غرف النصيب الأوفر من مادتها من هذا الكتاب[٣]. لقد عبّر بيلا في تمهيده لهذه الرسالة عن إعجابه كما يقول بيقظة أبي عثمان وفضوله المعرفي المذهل الذي جعله يمتلك رؤية شخصيّة للعالَم قادته إلى مشارف الشكّ، وهي خصوصيّة جاحظيّة دفعت مستشرقا ألمانيّا لا يمكن الاشتباه فيه إلى أن يقارنه بفولتير (Voltaire) حتّى وإن كان ينبغي الإحجام عن هذه المقارنات في نظر بيلا لكونها عديمة الجدوى. وعلى أيّ حال إذا ليس ثمّة بدّ من مقارنة الجاحظ بكتّاب غربيين كبار، فينبغي كما

---

[١] هذه المسرحية لشكسبير وإنْ لم تتّخذ من البخل موضوعا أساسا لها فإنّها تطرح إشكالية العلاقة بالمال باعتبار تأثيره في الوجود الإنساني. وفيها سخرية لاذعة من شخصية شايلوك التاجر اليهودي البخيل والجشع.

[٢] تعود علاقة بيلا بالجاحظ إلى فترة مبكّرة من حياته. فقد اكتشفه لأول مرّة في مراكش وعمره لم يتجاوز العشرين سنة عندما كان مدرّسا للغة العربيّة سنة ١٩٣٤ في إحدى إعدادياتها ومنشغلا في ذات الوقت بشهادة الأدب العربي التي كان يستعدّ لأن يُمتحن فيها، وهي الشهادة التي كانت تنقصه للحصول على الإجازة وكان من ضمن المقرّرات المبرمجة في هذه الشهادة مقرّرا متعلّقا بكتاب البخلاء للجاحظ الذي لم يكن يعرفه كما يقول ويأسف لذلك، فأسقطه من حساباته وفضّل عليه مقرّرا آخر متعلّقا بكتاب كليلة ودمنة لابن المقفّع ولكنّه قرّر أن يعود لاحقا إلي البخلاء الذي لاقى هوى في نفسه للانشغال به بصفة جدّية عندما تُتاح له الفرصة لذلك، وهذا ما تمّ له فعلا بعد خمس سنوات وبعد مدّة قصيرة من حلوله بدمشق سنة ١٩٣٩ لمّا شاءت الصدفة أن يهديه أساتذة سوريون نسخة من كتاب البخلاء الذي سهروا على تحقيقه ثم نشره في تلك الفترة. يروي بيلا في مذكّراته تفاصيل عودته إلى بخلاء الجاحظ مذكّرا أنّه منذ إقامته بمراكش وحصوله على شهادة الأدب ظلّ عنوان هذا الكتاب يطارده دون هوادة.

[٣] وهي مقالات كلّها بالفرنسيّة مثل: "نادرة"، ج ٧، ص ٨٥٨- ٨٦٠ "مقدّمة"، ج ٧، ص٤٩٥، " الجدّ والهزل"، ج٢، ص٥٤٩- ٥٥٠، "خبز"، ج٥، ص٤٢-٤٤، "مُكدّي"، ج ٧، ص٤٩٣-٤٩٥.

يضيف بيلا البحث عنهم ضمن كتّاب النزعة الإنسانية (humanistes). يقول بيلا "عادة ما يذكّرنا أبو عثمان فعْلاً بفولتير ولكن بما أنّ بعض المقاطع من مؤلّفاته تشبه البعض ممّا ورد في مؤلّفات رابليه (Rabelais) ولافونتان (La Fontaine) ولابرير (La Bruyére) وموليير (Molière) وديكارت (Descartes) وحتّى داروين (Darwin) يمكننا على هذا النحو أن نسرد كلّ كتّاب الإنسانيّة العظام الذين نجد لديهم ما يذكّرنا بالجاحظ"(الجويلي، مصدر سابق، ص 44)

وفي الحقيقة، فإنّ موسوعيّة الجاحظ ونزعته الإنسانيّة قد لا تتجلّيان على أحسن ما يكون كما تتجلّيان في كتاب البخلاء وهو ما أشار إليه شارل بيلا نفسه حين لم يجد أفضل من ملاحظات "ويليام مارسيه" (William Marçais) ليمهّد بها إلى ترجمته لهذا الكتاب الذي كشف "عن شغف مؤلّفه بالملاحظة وولعه بالجزئيات الدقيقة والنمطيّة وميله، وهذا الأهمّ، إلى التحليل النفسي للشخصيات وطبائعها... وخلاصة الأمر فمن هذا الكتاب يمكن أن يُولد أدب واقعي مهمّ [بالمفهوم الحديث للكلمة]"(Charles Pellat,, 1951, p.8.) متسائلا معه "كيف ولماذا تاه هذا المصدر المثير للالتباس، ولكنه المنعش والمتدفّق بالحياة خلال القرون التي تلت كتابته في مستنقع المقامة التقليديّة الباهتة التي تبعث على الضجر"[1]. يقول بيلا: "لا يمكنني الإجابة ولكنّ هذا الموضوع جدير بأن نقترحه للبحث على مؤرّخي الأدب العربي في المستقبل؟"(Charles Pellat,, 1951, p.9.)

لقد حاول البعض من الباحثين في الأدب العربي في سياق انشغالهم بالجاحظ وأدبه وفكره بصفة عامة الإجابة عن بعض الأسئلة التي يطرحها كتاب البخلاء دون الوقوف على ظاهرة البخل كما عرض لها أبو عثمان بصفة خاصة مثل وديعة طه النجم (النجم، ١٩٨٢، ص 99-96) وشفيق جبر(جبر، ١٩٧٤، ص ٣٤-٤٠) ومحمد عبد المنعم خفاجي الذي أوحى له كتاب البخلاء ودفعه إلى الانشغال بالحياة الاجتماعيّة في عصر الجاحظ (خفاجي، ١٩٨٢، ص ٢٤-٢٩)، وطفق البعض الآخر كلّ من زاوية اختصاصه أن يقصر جهده على كتاب البخلاء لوحده مثل أحمد بن امبيريك الذي اهتمّ بالمادة اللّغوية لهذا الكتاب وخصائصه الأسلوبيّة لاستنباط صورة البخيل الفنيّة (بن امبيريك، ، ١٩٨٥، ص١٤) وفدوى دوغلاس التي انشغلت ببنى البخل(Fadwá, 1985) وقبلهما شارل بيلا نفسه الذي استفاد من كتاب البخلاء في رسالته للدكتوراه، لا سيّما فيما يتعلّق بالباب الذي خصّصه للحياة الاجتماعية والاقتصاديّة في عصر الجاحظ (Charles Pellat, 1953 pp223-240.) ووعد فيه بأن يخصّص للجاحظ دراسة مونوغرافيّة (monographique) لفلسفته

[1] لعلّ مارسيه ينطلق في حكمه على المقامة من خلال أسلوبها المتصنّع واعتمادها على الزخرفة اللغويّة وسجعها الرتيب الذي يفقدها العفويّة التي يتميّز بهما الأدب الواقعي.

الاجتماعيّة(Charles Pellat, 1953 pp223.)، وهو ما يعنينا هنا مباشرة لكوننا طرحنا على أنفسنا دراسة منزلة الزوجة والعيال في فلسفة البخيل الاجتماعية ولكنّ بيلا على حدّ علمنا لم ينجز هذه الدراسة كما أشار إلى ذلك محمّد الجويلي(الجويلي، ١٩٩٠، ص ١٠). تناول الجويلي كتاب البخلاء بالدرس من زاوية علم اجتماع الأدب في بحث حاول أن يتلافى فيه من منظور جديد أهمله بيلا على حدّ اعتقاده انشغل فيه فضلاً عن العوامل التاريخيّة التي أفرزت ظاهرة البخل في الحضارة العربيّة الإسلاميّة في عصر الجاحظ بدراسة نوادر البخلاء وحجاجهم وصراعهم مع المناوئين لهم من دعاة الكرم ضمن تمشّ شمولي هدفه الإحاطة بهذه الظاهرة من كلّ جوانبها، أي انشغل بالبنى الكبرى (macro–structures)، إمّا مهملا عن قصد وفقا للمنهجيّة التي اختارها لبحثه الجزئيات والتفاصيل: البنى الصغرى [١] micro–structures أو موظّفا لها لخدمة الغرض الشمولي الذي ضبطه لنفسه وهو دراسة البخل في عصر الجاحظ سوسيولوجيا باعتباره ظاهرة حضريّة في علاقة بازدهار التبادل التجاري وغلبة قيم السوق وبالتحوّل الذي عرفه العرب من العمران البدوي إلى العمران الحضري(الجويلي، ١٩٩٠، ص ١٩–٣٩). إنّنا لا نعني بالبنى الصغرى فقط تلك التفاصيل والجزئيات الدقيقة والنمطيّة التي أشار إليها وليام مارسيه وجعلته يصنّف كتاب البخلاء ضمن الآثار الخالدة للأدب الواقعي بالمفهوم الحديث للكلمة وكأنّه نتاج عصرنا ولم يمرّ على تأليفه أكثر من عشرة قرون وجعلت البعض الآخر يشبّهون مؤلّفه بفولتير وموليار صاحب كتاب البخيل في العصر الحديث [٢] وإنّما البنى الاجتماعيّة الصغرى التي تشكّل النواة الأولى للوجود الاجتماعي وتمنح الهويّة الأساسيّة للأفراد داخل مجتمعهم قبل أن ينخرطوا في جماعات وشرائح كبرى مثل الفرقة المذهبيّة أوالقبيلة أو العشيرة أو الطبقة وصولا إلى الشعب والأمّة[٣]. ولا شكّ أنّ النواة الأولى للوجود الاجتماعي هي العائلة التي وإنْ اختلفت تركيبتها من مجتمع إلى آخر ومن عصر إلى عصر ومن ثقافة إلى

---

[١] فيما يتعلّق بالعلاقة بين البنى الكبرى والبني الصغرى في دراسة الظواهر الاجتماعيّة. انظر:
Mohamed Cherkaoui ; « Le réel et ses niveaux : peut-on toujours fonder la macrologie sur la micrologie ? » in *Revue Française de Sociologie*, Année 1997 38-3 pp. 497-524. Fait partie d'un numéro thématique: Sociologie et économie. Textes réunis et présentés par Pierre-Michel Menger.

[٢] إذا ما دقّقنا النظر في هذه الجزئيات الدقيقة والنمطيّة لأوحى لنا كلّ واحد منها أو مجموعة منها ببحث مستقلّ بذاته.

[٣] لعلم الاجتماع الحديث الفصل في بلورة نظريّة متماسكة حول العلاقة بين الجماعات والشرائح الاجتماعية. انظر:
Otto Gerhard Oexle, « Les groupes sociaux du Moyen Âge et les débuts de la sociologie contemporaine », in *Annales*, Année 1992, 47-3, p. 755

أخرى لاختلاف أنماط الزواج[١]. ونعني بالعائلة من خلال كتاب البخلاء ذاته العائلة المتشكّلة من زوج وزوجة وأبناء تكون فيها السلطة الأولى للزوج على زوجته وأبنائه ويكون تبعا لذلك قوّاما عليهم، بمعنى مطالبا بإعالتهم والإنفاق عليهم.

يلاحظ المتأمّل في كتاب البخلاء أنّه يتضمّن مادة شحيحة رغم أهمّيتها تتعلّق بالإخوة والأمّ لا بدّ من أن نعيرها اهتماما في فاتحة هذا المقال بالفهم والتحليل إلّا أنّ ما يشغلنا على وجه الخصوص هي المادة الثريّة التي يوفّرها كتاب البخلاء وتتعلّق بعلاقة البخيل بزوجته وعياله وبتمثّلاته النظريّة والذهنيّة لهم. ولعلّ غلبة المادة التي تتعلّق بالزوجة والعيال في حياة البخيل على النوادر والأخبار التي يكون موضوعها علاقة البخيل بوالديه وإخوته تعود لطبيعة البخيل وشخصيته الفردانية التي تميل بطبعها إلى الانعزال أكثر ما يمكن عن الآخرين فيتنصّل من عائلته التي نشأ فيها تجنّبا لما يجرّه عليه ذلك من التزامات ونفقات لينصرف للاهتمام بالعائلة التي أنشأها بنفسه والتي لا مفرّ له منها حتّى وإن شكّلت بدورها عبئا ثقيلا عليه يحمله أخاك مكرها لا بطل، هذا إذا لم يؤثر السلامة ويظلّ طيلة حياة أعزب متحرّرا من عبء الزوجة والعيال. وإذا ما علمنا أنّ ما يقود البخلاء في علاقتهم بالآخرين عموما بما في ذلك أقرب الناس إليهم أمّهاتهم وإخوتهم وزوجاتهم وأبنائهم هي فلسفتهم في جمع المال ومنعه التي اشتقّ لهم منها الجاحظ صفتهم " أصحاب الجمع والمنع"(الجاحظ، البخلاء، مصدر سابق، ص ٢٣)، وكذلك احتكار كلّ الطيبات من مأكل وملبس وغير ذلك لأنفسهم لنرجسيتهم المفرطة، فلن نتفاجأ حينئذ بنظرته إليهم وبطريقة معاملته لهم.

قد نخال لأوّل وهلة أنّ البخيل لا يحبّ زوجته وعياله لأنه ملزم على أن ينفق عليهم من ماله وهو أحبّ شيء لديه في الحياة الدنيا لا يرغب في التفريط منه بدرهم واحد. كلّا هو يحبّهم ولكنّه يحبّ المال أكثر منهم، بل قل أنّه يحبّهم ويكرههم في ذات الوقت في عاطفة مركّبة كان للتحليل النفسي الفضل في الكشف عنها[٢]. يحبّهم إذا ما أخلصوا له واتبعوا مذهبه : مذهب الاقتصاد في النفقة والتثمير للمال وكانوا على طباعه ويكرههم إذا ما لم يلتزموا التزاما صارما بمبادئه حتّى وإن كانوا على مذهبه، فما بالك بألّا يكونوا كذلك من الذين يعتقدون أنّ لا قيمة للمال إلّا باعتباره قوّام الأعمال وأنّ الدرهم خلق لأن يُنفق ولا أن

[١] تختلف بنية العائلة من مجتمع إلى آخر ومن عصر إلى عصر عبر تاريخ الإنسانيّة الطويل ولكن الثابت في ذلك أنّ لنظام القرابة وطبيعة الأسره الدور الأساس في هندسة القيم الاجتماعية والعلاقة بين الأفراد والجماعات. انظر:

Belmont Nicole, Godfrey Lienhardt, « Social Anthropology», In *Annales*, Année 1967, 22-3, pp. 667-671

[٢] حول ثنائية الحبّ والكره في العلاقة بالمال وتأثيره في الروابط الأسريّة. انظر:

Alain Gibeault, « Symbolique de l'argent et psychanalyse », (Fait partie d'un numéro thématique : L'argent), in *Communications*, Année 1989, 50, p 69.

يَغلق عليه في كيس في مكان لا يخرج منه أبدا.[١] سنعمل في هذا البحث على الالمام بنظرة البخيل إلى زوجته وعياله ومعاملته لهم من كلّ جوانبها وفي أدقّ جزئياتها محاولين تقليبها على كلّ وجوهها للكشف عن تناقضاتها وحلّ عقدها وتفكيك مركّباتها.

في الأهل على وجه العموم

الأقارب عقارب. هذه حكمة شعبية عربيّة مازالت تتردّد على الألسن إلى اليوم ونجد لها صدى في مدوّنات الأدب القديمة، بما في ذلك لدى الجاحظ نفسه لكون المرء معرّضا لحسد أقاربه، لا سيّما إذا كان صاحب مال وثروة أكثر ممّا هو معرّض له من أباعده كما أشار إلى ذلك صاحب كتاب البخلاء في رسالة الحاسد والمحسود متسائلا " لِمَ كثُر [الحسد] في الأقرباء وقلّ في البُعداء؟(الجاحظ، ١٩٨٧، ص ١١٥). ما يُقال عن الأقارب على وجه العموم يُقال عن كلِّ مَنْ يحتكّ بهم البخيل أكثر من غيرهم من الناس سواء من الأصدقاء أو الجيران أو الخدم وخاصة الذين تربطهم به صلة رحم، فهم إذا لم يحسدوه على نعمته، فيطمعون في ماله ويطلبون منه ما لا طاقة له عليه كلّما لبّى لهم طلب إلّا وطلبوا المزيد حتّى إذا ما ذهب ماله انفضّ من حوله الجميع ولذلك لا يتردّد البخيل في أن يضع كلّ هؤلاء في سلّة واحدة لا فرق بين القريب منهم والبعيد ليثبت أنّه لا قريب في الحقيقة من المرء إلّا ماله، فإذا ضاع ماله انقلب عليه الجميع بما في ذلك عياله: " ولكن جهد البلاء أن تَظْهر الخَلَّةُ[٢] وتطول المدة وتعجز الحيلة ثم لا تعْدَم صديقاً مؤنباً وابن عم شامتاً وجاراً حاسراً ووليا قد تحوّل عدواً وزوجة مختلعة وجارية مستبيعة وعبداً يحقرك وولداً ينتهرك (الجاحظ، البخلاء، ص ١١٤)، ولا يجد أفضل من الشعر ليدعّم رأيه في عدم الثقة بالناس عموما، لا سيّما الأقارب منهم وأنّ الحذر منهم والشكّ فيهم من اليقظة والحزم فيستشهد بهذين البيتين من المدوّنة الشعرية ذات النزعة التعليميّة الحِكَميّة لأحيحة بن الحلّاج:

استغنِ أو مُتْ ولا يغْرُرْك ذُو نَشَب *** من ابن عمّ ولا عمّ ولا خال

استغنِ عن كل ذي قربى وذي رَحِم *** إن الغَنيّ من استغنى عن الناس(الجاحظ، البخلاء، ص ١١٨)

غير أنّه إذا ما اعتبرنا الاحتراز من الجيران والأصدقاء والخدم والأقارب من أبناء الأخوال وأبناء العمومة، بل من الأعمام أنفسهم وحتّى من الزوجة والأبناء هو من باب الحزم ودلالة على الفطنة وقد يشاطره فيه أناس من غير البخلاء لكون التجربة أثبتته والحكمة الإنسانيّة دعت إليه رغم ما في ذلك من مبالغة هي من صميم فلسفة البخيل المتشائم الحذر حذرا شديدا إلى حدّ الوسوسة وفقدان الثقة بالناس أجمعين، بل بكلّ شيء ما عدا الدرهم

[١] أصحاب الجمع والمنع صفة أطلقها الجاحظ على بخلاء البصرة ممّن انتحلوا الاقتصاد في النفقة وتنمية المال الذين كانوا يجتمعون في المسجد لتطارح هذا الباب ودراسته: انظر، الجاحظ، البخلاء، ص٢٣

[٢] الخَلَّة بمعنى الفقر. ومن ذلك المثل: إذا جاءت الخلّة ذهبت الخلّة بمعنى إذا جاء الفقر ذهبت المحبّة

والدينار، فإنّ تغليب حبّه للمال على حبّه لمَن حبلت به وحملته في بطنها وعانت من أجل أن يرى نور الحياة والوجود قبل أن تتجشّم عناء تربيته والسهر عليه حتّى يقوى عوده يجعله يتنكّر لكلّ الآداب والشعائر التي تدعو إلى برّ الوالدين والنفقة عليهما بما يلبّي احتياجاتهما، لا سيّما الأمّهات اللواتي الجنّة تحت أقدامهنّ. ينقل لنا الجاحظ حديثا عن ابن معقّد الطباع، غريب الأطوار " يُظهر النُّسْك ويَدين بالبخل وله حانوت في مقبرة يبيع الأسقاط[١]"، فيقول "حدثتني امرأة تعرف الأمور قالت: كان في الحي مأتم اجتمع فيه عجائز من عجائز الحي. فلما رأين أن أهل المأتم قد أقمن المناحة اعتزلن وتحدثن. فبينا هن في حديثهن إذ ذكرنِ برّ الأبناء بالأمهات وإنفاقهم عليهن. وذكرت كل واحدة منهن ما يوليها ابنها. فقالت واحدة منهن وأم فيلويه ساكتة – وكانت امرأة صالحة... – قالت: فأقبلت على أم فيلويه قلت لها: ما لك لا تحدثين معنا عن ابنك كما يتحدثن وكيف صنع فيلويه فيما بينك وبينه قالت: كان يجري علي في كل أضحى درهماً! فقالت: وقد قطعه أيضاً! قالت: ما كان يجري عليّ إلا ذاك. ولقد ربما أدخل أضحى! فقالت: فقلت: يا أم فيلويه وكيف يدخل أضحى في أضحى قد يقول الناس: إن فلاناً أدخل شهراً في شهر ويوماً في يوم. فأما أضحى في أضحى فهذا لا يشركه فيه أحد.(الجاحظ، البخلاء، ص ٧٥-٧٦)

ليس هذا الابن الذي لا يهب والدته إلّا درهما يتيما زهيدا لا يشبع من جوع ولا يروي من ظمأ مرّة في السنة مع كلّ عيد أضحى ولا يستحي من إدخال أضحى في أضحى، فلا تغنم أمّه منه سواء نصف درهم في السنة، هذا إذا لم يقطعه تماما كما ورد على لسانها فلا تغنم شيئا عدا الصبر هو من الناس الذين يؤمنون بأنّ الجنّة تحت أقدام الأمّهات. جنّة هذا الابن والبخيل بصفة عامة هي تحت أقدامه فيما يكنزه في دهليز بيته من الأحجار الكريمة والمعادن النفيسة وفي كيس نقوده. أليس هو المناجي للدرهم قائلا ": كم من أرض قد قطعت! وكم من كيس قد فارقت! وكم من خامل رفعت! ومن رفيع قد أخملت! لك عندي ألا تعرى ولا تضحي! – ثم يلقيه في كيسه ويقول له: اسكن على اسم الله في مكان لا تهان ولا تذل ولا تزعج منه!– وأنه لم يدخل فيه درهماً قط فأخرجه(الجاحظ، البخلاء، ص ٨٧). يبدو البخيل رغم ما يُظهر من نُسك بالصلوات والعبادة والزهد في المأكل والمشرب على طريقة زهّاد المسلمين من صفوة الصالحات والصالحين، بل قل حتّى زهاد النصارى وأهل الكتاب أجمعين وثنيّا يعبد الأصنام: الدراهم والدنانير. إلاهه الحقيقي هو المال ولا إله غيره [٢]وما

[١] يبيع الأقساط: جمع سقْط ويعني القديم من الأثاث والمتاع وهي تجارة مربحة تدرّ على صاحبها مالا وفيرا.
[٢] البخل في جوهره عبادة للمال حتّى وإن اعتقد صاحبه أو أوهم غيره بأنّه يعبد الله وهذا ما كشف عنه شكسبير. انظر:
Boquet Guy, « Shakespeare and the morality of money, Social Research», in *Annales,* Année 1971, 26-5, pp.1022-1023

مناجاة أحد رفاقه في المذهب للدرهم وقد صار "إماما في البخل" كما يقول الجاحظ مؤكّدا على كونه يرفع الخامل ويخمل الرفيع فيأمر " كُنْ فيكون " إلّا دليل على ما قلنا وما أراد أن يقوله الجاحظ بالتلميح لا بالتصريح. يختار الجاحظ وهو معلّم البيان والتبيين الأول لدى العرب أدقّ الألفاظ والتعابير. فالابن العاق لوالدته كان "يظهر النُسك ويَدين بالبخل". البخل ديانة جديدة لا عهد للعرب بها، أتباعها يقدّسون الصلة بالمال وليس صلة الرحم حتّى ولو تعلّق الأمر باللواتي تشكّلوا في أرحامهنّ ولم يكن لهم وجود بدونهنّ. وإذا كانت هذه منزلة الأمّ لدى هذه النحلة الجديدة، فما بالك حينئذ بالإخوة الأشقّاء الذين خرجوا من نفس الرّحم.

تُوجد في كتاب البخلاء نادرتان تتعلّقان بالإخوة. الأولى يسوقها الجاحظ مستدّلا بها على طرافة كلام البخلاء ومعانيهم: " ثم رجع إلى أحاديث البخلاء وإلى طرف معانيهم وكلامهم. قال ابن حسان: كان عندنا رجل مُقِلّ وكان له أخ مُكْثر وكان مفرط البخل شديد النَّفْج فقال له يوماً أخوه: ويحك! أنا فقير مُعْيل وأنت غني خفيف الظهر لا تعينني على الزمان ولا تواسيني ببعض مالك ولا تتفرج لي عن شيء! والله ما رأيت قطّ ولا سمعت أبخل منك! قال: ويحك! ليس الأمر كما تظُنّ ولا المال كما تحسب ولا أنا كما تقول في البخل ولا في اليسر. والله لو ملكت ألف ألف درهم لوهبت لك خمسمائة ألف درهم. يا هؤلاء فرجل يهب في ضربة واحدة خمسمائة ألف درهم يقال له: بخيل!(الجاحظ، البخلاء، ص ١٢٦)

تتمثّل الطرافة التي يصف بها الجاحظ هذه القصّة والتي تجعل منها نادرة بالمفهوم الأدبي للكلمة[١] في ردّ البخيل الثريّ (المكْثِر) والخفيف الظهر، أي الذي ليس له الكثير من الأبناء– هذا إذا كان متزوجا وله أبناء ولم يكن أعزبا – على أخيه المعوز (المقِلّ) وكثير الأبناء (المُعيل) الذي جاءه يلومه لوما شديدا على عدم إعانته بالبعض من ماله ومساعدته على مقاومة ثقل الزمان عسى أن يستحي ويتكرّم عليه بشيء يفرّج كربته. الأسلوب الذي صِيغ به من جهة احتجاج الأخ الفقير على أخيه والمبني على التقابل بين الإكثار والقلّة والخفّة والثقل في المال والأبناء مع استعمال كلمة واحدة فقط لنهره "ويحك" التي تعبّر عن الأسى الذي يشعر به من إهمال شقيقه له ومن جهة أخرى رسم طبع الأخ الغنيّ في ما قلّ ودلّ من الكلام " مفرط البخل شديد النّفج"[٢] بمعنى شديد التكبّر والاعتداد بنفسه يدلّ على أنّه أسلوب الجاحظ حتّى وإنْ نسبه إلى غيره[٣]. وعلى قدر إفراطه في المال (مكثر) وفي

[١] انظر: شارل بيلا، فصل نادرة (بالفرنسيّة)، في دائرة المعارف الإسلاميّة، الطبعة الثانية،ج٧، ص ٨٥٨-٨٦٠

[٢] النفج هو افتخار المرء بما ليس عنده ولا فيه.

[٣] هذه عادة الجاحظ أن ينسب كلامه إلى غيره أو يختلق قارئا يدعوه إلى أن يحدثّه في موضوع ما أو يسأله عن أمر ما أشْكل عليه، والمتحدّث أو مَنْ يصوغ السؤال هو الجاحظ نفسه : انظر مقدّمته للبخلاء (ص ٧) حين يقول في مستهلّها " تولّاك الله بحفظه وأعانك على شكره... ذكرت أنّك قرأت كتابي في تصنيف حيل لصوص النهار... وقلتَ اذكر لي نوادر البخلاء، واحتجاج الأشحّاء، وما يجوز من ذلك في باب الهزل، وما يجوز منه في باب الجدّ...".

البخل (مفرط) وفي النفج (شديد) كان الأخ البخيل مفرطا ومكثرا في السفسطة[١] أي في استعمال قياس مركّب من الوهميات يتخلّله التلاعب بالألفاظ لطمس حقيقة ثرائه وبخله بُغية إفحام أخيه وإسكاته ليعود من حيث أتى خاوي الوفاض وبخفّي حنين لا يفكّر البتّة في أن يعيد الكرّة ويطلب منه معونة أبدا.[٢]

أمّا النادرة الثانية التي ساقها الجاحظ، فهي تتعلّق بأخوين بخيلين موسرين ومالهما لا يُحصى وكانا شريكين في كلّ شيء لكنّ أحدهما كان أبخل من الآخرغضب من أخيه شديد الغضب لأنّه غداة كلّ جمعة ولثلاث مرّات متتالية قد أمسك به متلبّسا وهو يتكرّم على البعض من أصحابه بطبق رطب لا يتجاوز ثمنه الدانقين[٣]. اكتفى في المرّتين الأولى والثانية بالسلام على القوم وهم يأكلون الرطب ولكن في المرّة الثالثة وقد طفح الكيل كتب لأخيه كتابا يدعوه فيها إلى فضّ الشراكة بينهما يقول له فيها :"

يا أخي! كانت الشركة بيني وبينك حين لم يكثر الولد ومع الكثرة يقع الاختلاف. ولست آمن أن يخرج ولدي وولدك إلى مكروه. وها هنا أموال باسمي ولك شطرها وأموال باسمك ولي شطرها وصامت في منزلي وصامت في منزلك لا نعرف فضل بعض ذلك على بعض. وإن طرقنا أمر الله ما ركدت الحرب بين هؤلاء الفتية وطال الصخب بين هؤلاء النسوة. فالرأي أن تتقدم اليوم فيما يحسم منهم هذا السبب (الجاحظ، البخلاء، ص٨٨).

يوم الجمعة هو يوم الجماعة الذي يذوب فيه الفرد داخل المجموعة في رحاب المقدّس ولذلك لا غرابة في أن يعود للأخ المعتدل في البخل ضميره الاجتماعي ويخرق العادة وما دأب عليه في أيّام الأسبوع الأخرى من إمساك وشحّ، فيجود على أصحابه بقليل من الرطب والرطب على رخص ثمنه في عرف البخيل عزيز وغال، في حين لا شيء يمكنه أن يعيد شقيقه المفرط في البخل إلى رشده وإلى الجماعة، لا يوم الجمعة ولا غيره من المقدّسات فلقد خرج كغيره من البخلاء الذين صاروا أئمّة في الشحّ " من غمار الأمّة" على حدّ تعبير الجاحظ.(الجاحظ، البخلاء، (المقدّمة)، ص٨) غير أنّ الحجج التي ساقها للتنصّل بنفس القدر من رابطة الأخوّة الدمويّة ورابطة الشراكة الاقتصاديّة لتلازمهما في واقع

---

[١] السفسطة هي قياس مركّب من الوهميات الهدف منها إفحام الخصم بحجج بليغة ولكنّها مخالفة للحقيقة. ظهرت في اليونان قديما وانتقلت بفعل الترجمة إلى بعض المتكلّمين المسلمين : انظر حول السفسطة باعتبارها " وهم الجدليّة" :

, Jean-Michel Charrue, « Illusion de la dialectique et dialectique de Pigler Agnès l'illusion. Platon et Plotin », in *Revue Philosophique de Louvain*, Année 2006, 104-1, pp. 196-198

[٢] تشبه هذه النادرة من حيث خاتمتها التي ينتهي فيها البخيل منتصرا على خصمه بالسفسطة الطريفة نادرتين هما نادرتا القاضي والوالي البخيلين. انظر: الجاحظ، البخلاء، ص ٢٠-٢١-٢٢

[٣] الدانق جمع دوانق ودوانيق، ضرب من النقود الفضية وزنه ثماني حبّات من الشعير وهو أقلّ قيمة من الدرهم. كان مستعملا في عصر الجاحظ.

الحال قد يسلّم البعض بوجاهتها، فالشراكة بين الإخوة ليست بالأمر الهيّن وكثيرا ما تتسبّب في خلافات يؤجّجها الزوجات والأبناء (أبناء العمومة) وتصل إلى حدّ الصخب والفتنة والحرب كما ورد على لسانه وهو أمر تثبته التجربة في سائر المجتمعات الإنسانية (Sforza, John, 2000, pp. 30-35). تبدو هذه الحجج وجيهة لو لم نعلم بأنّ رغبة الأخ في فضّ الشراكة مع أخيه في المال والأملاك التي كان مصدرها خوفه الشديد الذي يصل إلى درجة الفوبيا phobia [١] والوسوسة كانت بسبب ثلاثة أطباق رطب. ثلاثة أطباق رطب بدأت تنذر بهدم شراكة بين أخوين، بين عائلتين. نزل الكتاب على الأخ الشريك في المال والشريك كذلك في البخل مع شقيقه دون أن يبلغ مرتبته فيه نزول الصاعقة وذهب إلى التحقيق في الأمر مع أبنائه في غلظة، " فلما قرأ أخوه كتابه تعاظمه ذلك وهاله وقلب الرأي ظهراً لبطن فلم يزده التقليب إلا جهلاً. فجمع ولده وغلظ عليهم وقال: عسى أن يكون أحد منكم قد أخطأ بكلمة واحدة أو يكون هذا البلاء من جرائر النساء. فلما عرف براءة ساحة القوم تمشى إليه حافياً راجلاً فقال: ما يدعوك إلى القسمة والتمييز أدع صلحاء أهل المسجد الساعة حتى أشهدهم بأني وكيل لك في هذه الضياع وحول كل شيء في منزلي إلى منزلك وجرب ذلك مني الساعة. فإن وجدتني أروغ واعتل فدُونَك – فحاجتي الآن أن تخبرني بذنبي قال: مالك من ذنب وما من القسمة من بدّ.(الجاحظ، البخلاء، ص٨٨)"

ثلاثة أطباق كادت أن تتسبّب كذلك في جمع صلحاء أهل المسجد للشهادة على براءة الرجل ونيّته الصادقة تجاه أخيه الذي ذهب إلى حدّ أن يعرض عليه التنازل له على كلّ ما يملكه من ثروة وإيداعها في منزله إثباتا لصدق سريرته ولكنّ ذلك لم يجد نفعا، فقد ظلّ شقيقه مصرّا على القسمة. بدأ هذا الأخ مبتدئا في البخل، مازال في حاجة إلى التلقين والتأديب حتّى يصير مريدا جديرا ليس فقط بشراكة أخيه وإنّما بانتمائه إلى هذا المذهب الذي يدعو أصحابه إلى عدم تحقير الصغير والاستهانة باليسير.كان لا بدّ من أن يلقي عليه أخوه درسا يثبت له فيه أنّ إنفاق الرخيص يفتح على صاحبه إنفاق الثمين وأنّ الحكمة تتطلّب عدم فتح باب الإنفاق على الآخرين ولو في القليل لأنّ القليل مع القليل كلّ جمعة يصير كثيرا ثمّ أنّه عادة ما يجرّ صاحبه شيئا فشيئا إلى الكثير بعينه محذّرا له من مغبّة ارتكاب هذه الحماقة مرّة أخرى: "حدثني عن وضعك أطباق الرطب وبسطك الحصر في السكك

[١] الفوبيا هي خوف شديد ينتاب المرء ولا مبرّر له. يُصنّف ضمن الأمراض النفسيّة وتظهر أعراضه على البخيل ليس فقط في خوفه الشديد من المستقبل وإنّما كذلك من كلّ المحيطين به. يطلق علماء النفس على هذا النوع من الخوف الذي لا مبرّر له بـ"الفوبيا الاجتماعيّة Social phobia انظر حول هذه المسألة :
Jean Pierre Benoit, Didier Lauru, « Introduction. Les phobies : même pas peur ! » in *Enfances et Psychologie* ,N 65,pp. 8-11
Stein MB, Stein DJ, « Social anxiety disorder », in *Lancet*, vol. 371, n° 9618, 2008, pp. 1115-25

وإحضارك الماء البارد وجمعك الناس على بابي في كل جمعة! كأنك ظننت أنا كنا عن هذه المكرمة عمياً! إنك إذا أطعمتهم اليوم البرني أطعمتهم غداً السُكَّر وبعد غد الهِلْباث [١] ثم يصير ذلك أيام الجمع في سائر أيام الأسبوع. ثم يتحول الرطب إلى الغداء ثم يؤدي الغداء إلى العشاء. ثم تصير إلى الكساء ثم الأجداء ثم الحملان ثم اصطناع الصنائع! والله إني لأرثي لبيوت الأموال لخراج المملكة من هذا فكيف بمال تاجر جمعه من الحبات والقراريط والدوانيق والأرباع والأنصاف قال: جعلت فداك! تريد ألا آكل رطبة أبداً فضلاً على غير ذلك فلا والله لا كلمتهم أبداً! قال: إياك أن تخطئ مرتين: مرة في إطماعهم فيك ومرة في اكتساب عداوتهم. أخرج من هذا الأمر على حساب ما دخلت فيه وتسلم تسلم (الجاحظ، البخلاء، ص ٨٨-٨٩) ."

تتميّز علاقة البخيل بعائلته بالتوتّر الدائم. ما ينغّص عليه سعادته بالمال هي عائلته التي تصدّه عن الانصراف متنسّكا زاهدا إلى عبادة معشوقه الأكبر الدرهم وتفسد عليه خلوته به وانصرافه له لوحده وذلك بإجباره على إنفاقه عليهم ومشاطرته تبعا لذلك التمتّع به "وأن أهله ألحوا عليه في شهوة وأكثروا عليه في إنفاق درهم فدافعهم ما أمكن ذلك. ثم حمل درهماً فقط [وانصرف إلى السوق لقضاء به حاجة لهم لكنّه تراجع عن ذلك]! ورجع إلى أهله ورد الدرهم إلى كيسه – فكان أهله منه في بلاء. وكانوا يتمنّون موته والخلاص منه بالموت أو الحياة (الجاحظ، البخلاء، ص ٨٦). لا نعلم إذا كان الأهل هنا المقصود بهم زوجة البخيل وعياله أو عائلته الكبرى: والداه وإخوته أو كلاهما، فكلمة أهل في العربيّة تُطلق على العموم وقد تدلّ على عائلة الشخص الكبرى كما يمكن أنّ تدلّ على عائلته الصغرى فحسب[٢]، لكن الأهمّ من ذلك هو أنّ من فرط شحّه كان أهله منه في بلاء حتّى أنّهم صاروا يتمنّون الخلاص منه والفراق معه في الحياة الدنيا أو حتّى بالموت: الفراق الأبدي الذي قد لا يتمنّاه العدوّ لعدوّه، ما يدلّ على أنّهم ضاقوا به ذرعا وبلغوا في كرهه مبلغا شديدا[٣]. قبل أن نعود إلى هذا البخيل لنرى كيف كان ردّ فعل ابنه تجاهه بعد مماته وطريقته المخصوصة في تأبينه !لا بدّ من أن نشير إلى أنّ الجاحظ في كتاب البخلاء، بقدر ما كان شحيحا في مدّنا بنوادر وأخبار ومحاججات في شأن علاقة البخيل بإخوته وأمّه وأهله عموما كان سخيّا فيما يتعلّق بسرد وصايا البخلاء لأبنائهم والكشف عن معاملتهم لزوجاتهم وعيالهم ونقل آرائهم فيهم. ما يلفت الانتباه في هذه المعاملة هو استنادها إلى أسس

[١] البرني نوع من أجود التمر والسُكَّ ضرب من الرطب الجيّد الشديد الحلاوة والهِلْباث نوع من التمر أجود من البرني والسكّ وأبهض منهما ثمنا.

[٢] الأهل تُطلق في العربيّة على ذوي القربى بصفة عامة وجمعها أهلون وأهال.

[٣] حول علاقة البخيل بأهله وحرمانهم من ماله. انظر :

Ullrich Langer, « L'avarice dans l'éthique (plaisir, liberté, prudence) », in *Seizième Siècle,* Année 2008, 4, p 63

نظريّة وتصوّرات ذهنيّة تقسّم المجتمع إلى أسياد وعبيد وإلى متبوعين وأتباع بمقتضاه يحتكر السيادة بالطبع لنفسه ويبعد زوجته وعياله عنها ويحشرهم تبعا لذلك في أسفل السلّم الاجتماعي في زمرة الإماء والعبيد " :[١] وعبتموني حين ختمت على سدّ عظيم، وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة، ومن رُطبة غريبة، على عبد نهم، وصبيّ جشع وأَمَة لكْعاء وزوجة خرقاء.. وليس من أصل الأدب ولا في ترتيب الحكم ولا في عادات القادة ولا في تدبير السادة أن يستوي في نفيس المأكول وغريب المشروب وثمين الملبوس وخطير المركوب والناعم من كل فن واللباب من كل شكل التابع والمتبوع والسيد والمسود. كما لا تستوي مواضعهم في المجلس ومواقع أسمائهم في العنوانات وما يستقبلون به من التحيات(الجاحظ، البخلاء، ص١٣).

الاستثناء الوحيد الذي يجعل البخيل يحرّر زوجته وعياله من العبودية هو ألّا تكون زوجته خرقاء بالمعنى الذي يعطيه لهذه الصفة، أي تحكم التصرّف على طريقته هو وألّا يكون ابنه جشعا : أي أن يكونا بخيلين مثله ولكن الزوجة العادية التي تطالب زوجها بالإنفاق . بما يلبّي حاجتها وحاجات أبنائها هي في الغالب خرقاء في نظره حتّى وإنْ كانت حكيمة في ميزان العادة والعقل والابن كذلك، لا سيّما إذا كان صبيّا هو جشع بطبعه والجشع من طبع الصبيان ولكنّه لا يتجاوز تلبية رغباتهم البسيطة من مأكل ومشرب وملبس وذلك ما عهدته البشرية في طبائع الصبيان على مرّ الدهور. ولكن ما هو بسيط في نظر الغالبيّة من الناس هو في عيون البخلاء مركّب وشديد التعقيد.

الزوجة

لقد رأينا أن المعشوق الأوّل والأخير للبخيل هو المال ولا مكان في قلبه إلّا للدرهم والدينار وما يُقتنيان بهما من متاع الدنيا من مأكول ومشروب وملبوس وغير ذلك وتبعا لذلك فإنّ البوصلة التي تقوده نحو المرأة حتّى قبل الزواج وعند الخطبة ذاتها التي تمهّد له هي مصلحته وما يمكنه أن يجنيها من خلالها من منفعة وهذا ما نعرفه من سيرة أبي القماقم الذي " ألحّ على قوم عند الخطبة إليهم يسأل عن مال امرأة ويحصيه ويسأل عنه. فقالوا: قد أخبرناك بمالها فأنت أي شيء مالك قال: وما سؤالكم عن مالي الذي لها يكفيني ويكفيها (الجاحظ، البخلاء، ص ٨٢). ليس الزواج في عرف البخيل رحمة وسكنا الغرض منه

[١] وإنّما تنسحب على الزوجة في الغرب الأوروبي كذلك. انظر: منزلة الزوجة الدونية ليست خاصية عربيّة إسلاميّة في العصر الوسيط :

- Roger Chartier, « Différences entre les sexes et domination symbolique (note critique) » in *Annales*, Année 1993, 48-4, pp. 1005-1010

- Gianna Pomata, « Histoire des femmes et "gender history " », (Traducteur: Pascale de Mezamat), in *Annales*, Année, 1993, 48-4, pp. 1019-1026

إنجاب الذرية الصالحة تنمية للحياة واستثمارا فيها حفاظا على النوع الإنساني واستمراريته، وإنّما هو وسيلة لتنمية المال وتثميره وإلّا فلا منفعة منه حتّى أنّ البخيل وعلى عكس ما نعرفه من سيرة الرجال ومن أشعار العرب المتيّمين بحبيباتهم الذين طالما تغنوا بجمالهنّ وعبّروا عن حرمانهم منهنّ ورغبتهم في الوصال بهنّ الذي وصل ببعضهم إلى حدّ الوله والجنون مثل قيس بن الملوّح المُلقّب بمجنون ليلى، فإنّ البخيل إذا تعشّق امرأة وبكى بين يديها ولم يعد لديها أيّ شكّ في غرامه وتتيّمه بها، فاطمأنّت إليه واستجابت لنداء عشقه واعتقدت أنّه سيطلب منها ما يطلبه الرجال من النساء في سُنّة الله وخلقه، خرق العادة والمألوف في سلوك عجيب يعكس نفسيته المريضة. يقول الجاحظ " وتعشق أبو القماقم واحدة فلم يزل يتبعها ويبكي بين يديها حتى رحمته. وكانت مكثرة وكان مقلاً. فاستهداها هريسة وقال: أنتم أحذق بها! فلما كان بعد أيام تشهى عليها رؤوساً. فلما كان بعد قليل طلب منها حيسة. فلما كان بعد ذلك تشهى عليها طفيشلية. قالت المرأة: رأيت عشق الناس يكون في القلب وفي الكبد وفي الأحشاء. وعشقك أنت ليس يجاوز معدتك! (الجاحظ، البخلاء، ص ٨٢). في تعليق المرأة التي حوّلها عشيقها الولهان بها إلى طبّاخة في حين كانت تنتظر أن يغمرها بعطفه جسدا وروحا إيماءة إلى أنّ الرجل أصابته علّة الإخصاء في دلالته النفسيّة والجسديّة. من المعروف أنّ العشق المبالغ فيه للمال والسلطة وأحيانا الرياضة وفي حالة بخيلنا الأكل وما توفّره هذه المعشوقات من متع قد يتحوّل إلى مرض نفسي يصرف صاحبه عن متعة الوصال مع المرأة [١]

علاقة البخيل بالمرأة علاقة معقّدة كعلاقته بنفسه وبالآخرين عموما وقد تتدخّل عوامل ثقافيّة واتنيّة والعهدة هنا على الجاحظ الذي خصّص في كتاب البخلاء بابا للفرس من خراسانيين ومراوزة نسبة إلى مدينة مرو الذين يتهمهم الجاحظ بالبخل باعتباره مكوّنا من مكوّنات شخصيتهم الجمعيّة ولا شكّ أن الخلفيّة التي قادت الجاحظ إلى هذا الحكم هو تصديّه للنزعة الشعوبية التي تحقّر من شأن العرب وتحاول إثبات أفضلية الفرس عليهم في كلّ شيء، ما حدا بالجاحظ إلى الردّ على هذه النزعة بإثبات أفضليّة العرب على الفرس

[١] حول أخلاق الخصيان بصفة عامة وأمراضهم النفسيّة : انظر الجاحظ " كتاب مفاخرة الغلمان والجواري" في الرسائل السياسيّة، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٩، ص، ١٨٤- ١٨٥وحول عشق البخيل الشديد للمال الذي يصرفه عن الملذّات الطبيعيّة الأخرى، بما في ذلك لذّة الوصال مع المرأة ويحوّله تبعا لذلك إلى كائن مرضيّ، انظر:

Legrand Georges J. Rogues de Fursac, « L'avarice. Essai de psychologie morbide », in *Revue Philosophique de Louvain,* Année 1912, 73, pp. 146-147

وحول طغيان الرغبة في تكديس المال على كلّ الرغبات الأخرى. انظر:

Ullrich Langer , « L’avarice dans l’éthique (plaisir, liberté, prudence) », in *Seizième Siècle,* Année 2008, 4, pp. *61*-62

في الخطابة وفي الشعر وفي الكرم[١]. يورد الجاحظ طرفة عربيّة ترسّخ الاعتقاد في أنّ البخل متأصّل في بلاد فارس عموما وفي مرو على وجه الخصوص لدى الإنسان والحيوان على حدّ السواء " وقال ثمامة: لم أر الديك في بلدة قَطُّ إلّا وهو لاقط يأخذ الحبة بمنقاره ثم يلفظها قدام الدجاجة إلا ديكة مرو فإني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحَبّ! قال: فعلمت أن بخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء. فمن ثمّ عمّ جميع حيوانهم".(الجاحظ، البخلاء، ص١٦).

وإذا كان هذا حال الديكة مع الدجاج في مرو، فما بالك إذن بحال الرجال مع زوجاتهم. هذا ما توحي به هذه الملحة التي ترسم الرجل الفارسيّ البخيل بطبعه أنانيا مع الأنثى تنعدم فيه أخلاق الشهامة والمروءة ومن ثمّة الرجولة التي تقتضي أن يبجّل الرجل المرأة على نفسه حول مائدة الطعام وفي بعض السياقات الأخرى من الحياة اليوميّة، لا لضعف في نفسه وإنّما احتراما للأنثى كما هو عند العرب ولدى أمم أخرى يُطلق عليها في الآداب الفرنسيّة بمفردة [٢] Courtoisie الديك والدجاجة لا معنى لهما إلّا باعتبارهما يحيلان على الرجل والمرأة، الزوج وزوجته وإذا سمحنا لأنفسنا أن ندغم ملحة أبي القماقم وملحة الديك والدجاجة في ملحة واحدة لاستخلصنا أنّ البخيل من فرط غلبة غريزة الأكل عليه قد فقد غريزة ميل الذكر إلى الأنثى الطبيعيّة في دلالتيها العاطفيّة والجنسيّة، أي فقد رجولته.

منذ الخطبة وبمجرّد أن يعشق يعلن البخيل عن نواياه كما رأينا، أمّا إذا تزوّج فالشرط الأساس يظلّ هو نفسه: منفعته أوّلا وقبل كلّ شيء. أن تمتثل زوجته لأوامره بحذافيرها، بما في ذلك فيما لا يخطر لها على بال في تدبير شؤون الحياة اليوميّة كأن لا تجيد التصرّف حسب نظره في استعمال أدوات الطبخ ومتاع المنزل وصيانتها كالمقلى والخوان وغيرهما. ولذلك لم يتورّع بخيل خراساني كان يشفق على أواني الأكل أكثر ممّا يشفق على زوجته وعياله والذي نراه في وليمة في منزل جاره وكان قد أعاره خوانه وهو يأكل تمرا وسمنا يتعمّد تقطير السمن على الخوان –وهو ما لا يفعله في منزله– رغبة منه في أن يُدَسِّمَه ويطيل

---

[١] انظر حول ردّ الجاحظ على الشعوبيّة:

- Charles Pellat, « al- Ǧāḥiẓ : Les nations civilisées et les croyances religieuses», in *Journal asiatique*, CCLV, Paris, 1967 , p.67, p72

- « al- Ǧāḥiẓ et les peuples du sous-continent » in *Oientalia Hispanica, Sive studia F .M.* Pareja octogenario dicata à Leyde 1974), p. 545

[٢] تبجيل الرجل على المرأة يعبّر عليه كذلك القول الانجليزي المأثور (Lady is first) أمّا المصطلح الفرنسي الذي يلخّص آداب التعامل مع المرأة والذي اشتق منه نمط من الحبّ أطلق عليه الفرنسيون تسمية (L'amour courtois) احتراما للأنوثة وتقديرا لها فنجد له أصداء في طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، انظر:

Rachel Arié, « Ibn Hazm et l'amour courtois », in *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée,* Année 1985, 40, pp. 75-89.

أكثر ما يمكن من عمره. "يُطلّق امرأته وهي أم أولاده لأنه رآها غسلت خواناً له بماء حار" ويقول لها: هلَّا مسحتهِ ! (الجاحظ، البخلاء، ص٢٠) لأنّ غسل الخوان وما شابهه من الأمتعة بالماء الحار من شأنه أن يتلفه والمسح في هذه الحالة أفضل رغم أنّه غير كاف لتطهيره. حماقة كُبرى ارتكبتها هذه الزوجة وكانت عاقبتها طلاقها من زوج بدت له أقلّ قيمة من الخِوان !

بيد أنّه في كلّ الحالات وعندما يتعلّق الأمر بصلة البخيل بمحيطه الإنساني تظلّ الزوجة إنْ لم نقل أقرب الناس إليه [١]، فهي شريكة حياته يعيش معها تحت سقف واحد ويحدث أن تشاطره جني ثمار إبداعاته في كلّ ما يتعلّق بالحياة اليوميّة في المأكل والملبس وحتّى في طريقة الاستحمام وهو ما نقف عليه في حياة أحد شيوخ البخل من البصريين الذين كانوا يجتمعون في المسجد وهم مِمَّن ينتحل الاقتصاد في النفقة والتنمية للمال من أصحاب الجمع والمنع. وقد كان هذا المذهب [٢]كما يقول الجاحظ " قد صار عندهم كالنسب الذي يجمع على التحاب وكالحلف الذي يجمع على التناص. وكانوا إذا التقوا في حلقهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه(الجاحظ، البخلاء، ص٢٣). في حلقة من هذه الحلقات عرض الشيخ البخيل على أصحابه معضلة الماء في البصرة وكان النهر من بيته بعيدا وتكاليف الماء العذب غالية وماء بئره ملح أُجاج يشرب منه حماره فاعتل عنه و"انتقض علينا كما يقول من أجله. فصرنا بعد ذلك نُسقيه العذب صرفاً". قبل أن يضيف "وكنت أنا والنعجة [بمعنى الزوجة] [٣] كثيراً ما نغتسل بالعذب مخافة أن يعتري جلودنا منه مثل ما اعترى جوف الحمار. فكان ذلك الماء العذب الصافي يذهب باطلاً. ثم انفتح لي باب من الإصلاح فعمدت إلى ذلك المتوضأ فجعلت في ناحية منه حفرة وصهرجتها وملستها حتى صارت كأنها صخرة منقورة. وصوبت إليها المسيل. فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافياً لم يخالطه شيء. والحمار أيضاً لا تقزز له منه. وليس علينا حرج في سقيه منه. وما علمنا أن كتاباً حرمه ولا سنة نهت عنه. فربحنا هذه منذ أيام واسقطنا مؤنة عن النفس والمال مال القوم. وهذا بتوفيق الله ومنه (الجاحظ، البخلاء، ص٢٣).

---

[١] الزوجة حاضرة دوما في نوادر البخلاء وعلاقتها بزوجها البخيل استقطبت اهتمام المبدعين والكتاب في ثقافات أخرى. انظر:

Ullrich Langer, « L'avarice dans l'éthique (plaisir, liberté, prudence) », in *Seizième Siècle,* Année 2008, 4, p70

[٢] أطلق الجاحظ على البخلاء صفة المذهب، بمعنى النحلة التي تجتمع على جملة من الأفكار والمبادئ وتنغلق على نفسها: حول تركيبة المذاهب والنّحل وطبيعتها انظر:

Daniel Vidal , « De la secte: un discours pour la forme », in *Sociologie du travail,* Année 1982, 24-1, pp. 63-84

[٣] يطلق العرب قديما على المرأة كنية النعجة. ونجد لذلك أثر في تفسير القرآن الكريم للأية ٢٣ من سورة (ص) التي تتعلّق بقصّة النبيّ داود:﴿ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾. انظر: تفسير الطبري، ج٢٠، ص ٥٣، ٥٩، تفسير القرطبي، ج١٥، ص٧٤

يتحدّث هنا الشيخ البصريّ البخيل عن زوجته وكأنّهما جسم واحد. يستحمّان بنفس الماء العذب رغم غلوّ ثمنه وهذا مكسب عظيم لزوجة رجل بخيل يشفق عليها من ماء البئر – كما يشفق على نفسه – مخافة أن يعتري جلدها ما اعترى جوف الحمار، ما يدلّ على أنّ مازال في قلبه رحمة وعاطفة ولم يفقد تماما صلته بالإنسانيّة. وهو ما قد يحسدها عليها زوجات بخلاء آخرين مثل زوجة صاحب الخوان التي طلّقها لكونها تغسله بالماء الحار.

يحدث كذلك أن يبجّل البخيل زوجته على غيرها من بعض أقاربه وأصدقائه. فعندما سكر زبيدة الصيرفي ليلة وفي نشوة السكر خلع قميصه وأهداه إلى صديقه ونديمه الذي فهم وهو العارف ببخله أنّ ذلك من تأثير"هفوات" السكر وأنّه لن يتردّد في المطالبة باسترجاعه عندما يفيق من سكرته، فسارع بالعودة به إلى منزله وصيّره بركانا لزوجته[١]. من الغد وعندما نهض زبيدة من النوم وأفاق من سكره قصد صديقه وطلب منه أن يعيد له قميصه مستعملا في ذلك حجج فقهيّة وأخلاقية لم تجد نفعا[٢] حتّى أعلمه صديقه بأنّه قد " جيّبه لامرأته وقد زاد في الكمين وحذف المقاديم" فإذا أراد أن يأخذه كما صار عليه فليأخذه، فقال له " نعم آخذه لأنه يصلح لامرأتي كما يصلح لامرأتك." (الجاحظ، البخلاء، ص٢٧). اختار زبيدة أقلّ الضررين: أن يستعيد القميص حتّى وإنْ لم يعد صالحا له لتلبسه زوجته عوض زوجة صديقه، فلا يخسر خسارة كاملة والأقربون أولى بالمعروف.

ولكنّ الزوجة لا تكون قريبة حقّا من زوجها البخيل إلّا إذا كانت عونا له على الاقتصاد في النفقة وتثمير المال، حاذقة ماهرة في تدبير شؤون المنزل وفي توفير حاجيات العيال من ملبس ومأكل بأقلّ ما يمكن ومالا يمكن من التكاليف، ومن ثمّة تكون له عونا بالخصوص على صدّ شهوات العيال وقمع رغباتهم في التلذذ بطيّبات الطعام وهكذا نراه ينصح غيره بما يحبّه لنفسه "لا تعدم صَنَاعُ ثَلّة[٣] فلا تكونن دون تلك الصناع. وقد قال الأول في المال المضيع المسلط عليه شهوات العيال: ليس لها راع ولكن حلبة(الجاحظ، البخلاء، ص١٢٤).

في كتاب البخلاء هناك أمثلة محسوسة على ما يُطلق عليها البخلاء "الزوجة الصالحة عون الصدق"(الجاحظ، البخلاء، ص١٢٣). التي تُحسن التدبير وتكون خير أمين على مال زوجها تعينه على همّ الزمان والعيال. اشتكى أيّاما بخيل صدره من سُعال أصابه، فنصحه البعض ببعض الأطعمة والدهون استثقل ثمنها حتّى وجد ضالته في ماء النخالة الزهيدة الثمن يحسوه حارا فوجده "طيّبا جدّا ويعصم" يبرئ في ذات الوقت من السعال ويشبع، فإذا تغدّى به فلا حاجة له بالعشاء. يقول:"فقلت للعجوز: لِمَ لا تطبخين لعيالنا في كل غَداة

[١] البرنكان، كساء من الصوف له علمان كما يقول الفرّاء.
[٢] الحجّة الفقهيّة الأساسيّة التي ساقها زبيدة تتمثّل في كون هبة السكران لا تجوز شرعيّا.
[٣] أي امرأة حاذقة ماهرة بعمل اليدين والثلّة هو الصوف تغزله المرأة.

نُخالة فإنّ ماءَها جلاء للصدر وقُوتُها غِذاء وعِصْمة ثمّ تُجفّفين بعْدُ النخالة فتعود كما كانت. فتبيعين إذا الجميع بمثل الثمن الأول ونكون قد ربحنا فضل ما بين الحالين! قالت: أرجو أن يكون الله قد جمع بهذا السعال مصالح كثيرة لما فتح الله لك بهذه النخالة التي فيها صلاح بدنك ومعاشك ! وما أشك أن تلك المشورة كانت من التوفيق! قال القوم: صدقت مثل هذا لا يكتسب بالرأي ولا يكون إلا سماويا! (الجاحظ، البخلاء، ص٢٤).

لا نعلم إنْ كانت زوجة البخيل العجوز قد عملت بنصيحة زوجها أم لا، فقد سكت الجاحظ عن ذلك، لاسيّما أنّ ردّها قد ورد في صيغة الرجاء والتمنّي وليس في صيغة التأكيد والتحقيق وقد يُفهم منه الشيء ونقيضه: أن تكون قد قالت ما قالت ساخرة من زوجها بالإشارة إلى أن باب الرأي لديه قد فتحه السعال، والمرض في العادة لا يفتح إلّا بابا لمرض آخر أو قالته جادّة من قبيل أنّ رُبّ ضارة نافعة ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (سورة البقرة، الآية ٢١٦)، مستحسنة نصيحته ومعجبة بعبقريته مثلها مثل القوم الذين استمعوا إلى قصّته مع النخالة ورأوا فيها ضربا من المعجزات تصل إلى درجة الوحي المنزّل من السماء..

أمّا إذا اعترانا الشكّ في مدى صدق هذه الزوجة مع زوجها حتّى وإنْ رجّحنا أنّها عملت بنصيحته لعلاقة التبعيّة التي تربطها به وتجعل من تنفيذ أمره ليس منه بدّ حتّى لا تعرّض نفسها للطلاق بسبب النخالة كما عرّضت زوجة بخيل آخر نفسها له بسبب خِوان فلن يعترينا في صلاح مريم الصنّاع وهي أفضل مثال في كتاب البخلاء التي يصحّ فيها أكثر من غيرها أن تُسمّى بالصفة الإيجابيّة التي اختارها البخلاء لأنفسهم " ذوو الإصلاح والمقتصدون في النفقة والمثمرون للمال" نأيا بأنفسهم عن صفة البخل السلبيّة التي يعتقدون أنّها أُلصقت بهم ظلما وتجنّيا. تذاكر البخلاء البصريون في المسجد مآثرها يوم وفاتها عندما اندفع شيخ منهم ملتاع لموتها يحدّثهم عنها ويعرّفهم بها ويعدّد خصالها في أشبه ما يكون بالتأبين فقال "هل شعرتم بموت مريم الصناع، فإنها كانت من ذوات الاقتصاد وصاحبة إصلاح. قالوا: فحدثنا عنها. قال: نوادرها كثيرة وحديثها طويل. ولكني أخبركم عن واحدة فيها كفاية. قالوا: وما هي قال: زوجت ابنتها وهي بنت اثنتي عشرة فحلتها الذهب والفضة وكستها المروى والوشي والقز والخز وعلقت المعصفر ودقت الطيب وعظّمت أمرها في عين الخَتَن ورفعت من قَدْرها عند الاحماء. فقال لها زوجها: أَنّى هذا يا مريم قالت: هو من عند الله. قال: دَعِي عنك الجملة وهاتي التفسير. والله ما كنت ذات مال قديماً ولا ورثته حديثاً. وما أنت بخائنة في نفسك ولا في مال بعلك. إلا أن تكوني قد وقعت على كنز! وكيف دار الأمر فقد أسقطت عنّي مُؤْنة وكفيتيني هذه النائبة. قالت: اعلم أَنّي منذ يوم ولدتها إلى أن زوجتها كنت أرفع من دقيق كل عجنة حفنة. وكنا – كما قد علمت – نخبز في كل يوم مرة. فإذا

اجتمع من ذلك مَكُّوك بعته. قال زوجها: ثبّت الله رأيك وارشدك! ولقد أسعد الله مَن كنت له سكناً وبارك لمَن جعلت له إلْفاً! ولهذا وشبهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من الذود إلى الذود إبل. وإني لأرجو أن يخرج ولَدَك على عِرْقك الصالح وعلى مذهبك المحمود. فنهض القوم بأجمعهم إلى جنازتها وصلوا عليها. ثم انكفؤوا إلى زوجها فعزوه على مصيبته وشاركوه في حزنه(الجاحظ، البخلاء، ص٢٣-٢٤).

إنّ ما قامت به مريم الصنّاع ما هو إلّا أحسن مثال حيّ وبالممارسة في الواقع لمبدأ نظريّ عام يمثّل ركيزة أساسية في مذهب الاقتصاد في النفقة وتنمية المال ألا وهو عدم تحقير الصغير لأنّ الصغير مع الصغير بفعل المراكمة اليومية يصير حتما كبيرا : الدرهم مع الدرهم يصير دينارا وتكديس دينار إلى جانب دينار كلّ يوم يصير بتتالي الأيّام والشهور ثروة ورأس مال من شأنه أن ينقل صاحبه نقلة نوعيّة من الفقر إلى الثراء ولذلك وعت مريم منذ أن ولدت ابنتها أنّ حفنة دقيق من كلّ عجنة خبز كلّ يوم تضاف إليها في اليوم التالي حفنة أخرى وهكذا دواليك على مرّ الأيام والشهور والأعوام طيلة اثنتي عشرة سنة ستتحوّل بالجمع ثمّ البيع إلى ذهب وفضّة، ليس تحوّلا في الكم فقط وإنّما كذلك في النوع في عمل استثنائي لا يقوى عليه كبار الكيميائيين المختصّين في تحويل المواد، وهو عمل أشبه ما يكون بالسحر جعلها تضمن لابنتها زواجا محترما " تعظّم شأنها في عين الختن وترفع من قدرها عند الاحماء " وترتقي بنفسها وبابنتها وبزوجها، أي بعائلتها إلى مصاف أكابر القوم وهي التي بدا وأنّها تنتمى إلى الطبقة الشعبية متوسّطة الحال، انتماء نفهمه من قول زوجها "كفيتيني هذه النائبة". صعدت مريم بعائلتها في السلّم الاجتماعي، صعودا يتجلّى على أحسن وجه في زينة العروس بثيابها الفاخرة وحليتها الثمينة وعطرها الطيبّ الفوّاح من أجود أنواع الطِيب. غير أنهّ ليس ثمّة في صنيع الصنّاع من السحر شيئا، ولا دخل فيه للصدفة كأن تكون قد عثرت على كنز كما قال لها زوجها ولا للوراثة لأنّها لم ترث شيئا من أهلها لا قديما ولا حديثا، بل لا دخل فيه لقوى خارقة للعادة وإنّما هو بفعل إرادتها وباختيارها ومن ثمار حكمتها وعقلانيتها ولذلك حين سألها زوجها عن مصدر هذه الثروة " مَن أنّى لك ذلك ؟" أجابته "من عند الله" لم تقنعه إجابتها وخاطبها في نبرة المتكلّمين المعتزلة قائلا :" دعِي عنك الجملة وهاتي التفسير". [١]

[١] ليس الزوج هو المتكلّم. هذه مخاتلة من الجاحظ المعتزلي الذي يقوّل الزوج ما يريد أن يقوله والمعتزلة يؤمنون بالإرادة البشريّة وبمسؤوليّة الإنسان تجاه أفعاله خيرا وشرّا.
انظر حول نظريّة المعتزلة في الفعل الإنساني والمفاهيم الحافة به مثلل الامتحان والتكليف: الجاحظ، رسالة العثمانيّة في رسائل الجاحظ السياسيّة، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٧، ص١٣٢-١٣٦

وصلت مريم إلى تحقيق هذا الإنجاز العظيم، وهي التي لم تكن في يوم من الأيّام خائنة في مال بعلها بشهادته نفسه بفضل فطنتها ووعيها بأهمّية الادّخار[١]– تماما كما تفعل النملة وهي تدّخر في الصيف ما هي في حاجة إليه من المؤونة في الشتاء، إمّا تحسّبا لآفات الزمان وغدره وإمّا استباقا وإعدادا لمصاريف آتية لا محالة في يوم من الأيّام. تعلم مريم أنّها منذ ولدت ابنتها أن مسؤولية إعدادها للزواج هي مسؤولية ملقاة على عاتقها وعاتق والدها، وهي مسؤولية ثقيلة، بل نائبة كما ورد على لسان بعْلها كما تعلم أنّه ليس لها القدرة، كما لا قدرة لزوجها توفير ما تحتاجه في آخر لحظة قُبيل زواجها وأنّ السماء لن تنزل ذهبا وفضّة بهذه المناسبة، فلا حلّ تبعا لذلك إلّا في الادّخار واتباع سنّة النملة. هكذا نجحت مريم وأرضت الجميع : نفسها وابنتها وزوجها الذي أنقذته من ورطة ومن مؤنة ثقيلة ونائبة عظيمة، فلم يجد أفضل لمكافأتها على صنيعها من أن يُطلق عقيرته بالدعاء عليها بالخير معبّرا عن سعادته بها إقرارا بأنّ مريم، واسمها فيه إحالة على قداسة العذراء أمّ عيسى وطهارتها وبركتها بأنّها كانت له" سكنا"، أي زوجة صالحة مطابقة لما ينتظره الدين الحنيف من زوجات المسلمين في إحالة كذلك على الآية الكريمة ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الروم، ٢١). غنمت مريم محبة الجميع واحترامهم في حياتها وموتها خاصة زوجها الذي حزن لفراقها وكان في حاجة إلى مَن يشدّ أزره في المصيبة التي حلّت به برحيلها. غير أنّ الموت حقّ وقدر محتوم لا مفرّ منه والإنسان فان ولا يبقى منه إلّا ذكراه وما ورّثه من العمل الصالح لعقبه وذرّيته، وهو ما عبّر عنه زوجها في تمنّيه أن يخرج ولَدُها على عِرْقها الصالح وعلى مذهبها المحمود .

تُطرح في كتاب البخلاء مسألة التوريث بصورة لافتة للانتباه. البخيل كما يسمّيه معارضوه وأعداؤه أو المقتصد المصلح كما يسمّي نفسه لا يحرص على توريث ابنه المال بقدر حرصه على توريثه القيم التي يؤمن بها والمذهب الذي سار عليه في حياته. لا يعطيه السمك (المال) كما في الحكمة الصينيّة وإنّما يعلّمه كيف يصطاده. وهذا ما نقف عليه في وصيّة ابن خالويه لابنه حين قال لابنه عند موته " وهو إني قد تركت لك ما تأكله إنْ حفظته وما لا تأكله إن ضيعته. ولما ورثتك من العرف الصالح وأشهدتك من صواب التدبير وعَوَّدتك من عيش المقتصدين خير لك من هذا المال. وقد دفعت إليك آلة لحفظ المال

[١] يُنظر إلى الإدّخار في علاقة السلف بالخلف. انظر :
Christophe Marchand, « Épargne et équité entre les générations », in *Revue d'économie financière,* Année 1997, 42, pp. 159-175
وحول فلسفة الادّخار الاقتصاديّة وعلاقته بسلوك المدّخر في كلّ العصور والثقافات. انظر:
Patrick Artus, « L'épargne : évolution, flux, comportements», in *Revue d'économie financière,* Année 1997, 42, pp. 27-55

عليك بكل حيلة".(الجاحظ، البخلاء، ص ٣٢) ولكن إذا ما علمنا أنّ ألدّ أعداء البخيل هو العطاء، أدركنا إلى أيّ مدى سيكون تأثير هذه العداوة على علاقة البخيل بعياله : علاقة مركّبة، متقلّبة بين مدّ وجزر لا يقرّب فيها الأب ابنه إلّا ليبعّده عنه، علاقة جدليّة من الإبعاد والإدماح والجذب والنبذ والإثبات والنفي.

العيال

تدور نوادر البخلاء ومحاججاتهم وكلّ ما يصلهم بالآخرين بما في ذلك عيالهم حول المال "القطب الذي تدور عليه رحى الدنيا" (الجاحظ، البخلاء، ص ١١٠). وما دامت فلسفة البخيل قائمة على مبدأ الجمع والمنع، فأغلب المال الذي يجمعه البخيل طيلة حياته ويمنعه حتّى على عياله – وهنا جوهرالمفارقة – سيذهب إليهم بعد موته باعتبارهم ورثته. ولذلك فإنّ مسألة الوراثة تُطرح في كتاب البخلاء بشكل لافت للانتباه[١]. قد نجد بخيلا دون عيال لكونه أعزب أو لم ينجب ولكنّه يستعمل الإيهام بالتوريث وسيلة للضحك على ذقون الناس واستدراجهم لمحاباته والتقرّب منه، ومن ثمّة تحقيق متعة تزّلفهم وتملّقهم له وسوقهم في ركابه خاضعين له. يقول الجاحظ متحدّثا عن أحد البخلاء "وكان يُعَيَّنُ مالاً عظيماً. ولم يكن له وارث. فكان يسخر ببعضهم. فيقول عند الإشهاد: قد علمتم أن لا وارث لي. فإذا متّ فهذا المال لفلان! فكان قوم كثير يحرصون على مبايعته لهذا. (الجاحظ، البخلاء، ص ٦٨). ولكن لأغلب بخلاء الجاحظ زوجات وعيال يمنعون عنهم المال كما يمنعونه على أنفسهم وينتهون بتوريثه لهم، ما يجعل المناوئون لهم يشمتون فيهم: " تراثهم يصيرجنّة للوارثين والمال بين أعدائهم مقسوم في حين تُبلى محاسن وجوهم وتذهب أجسادهم للتراب والدود(الجاحظ، البخلاء، ص ١٠١).

لا يكترث البخيل لحكم الأوّلين التي تدعو إلى أن يتمتّع المرء في دنياه بماله قبل أن يُوارى التراب ""إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت وما لبست فأبليت أو أعطيت فأمضيت. وما سوى ذلك فللوارث"(الجاحظ، البخلاء، ص ١٠٦). كما لا يكترث لطلبات العيال الذين يدعونه إلى تلبية حاجاتهم في الحاضر قبل أن يفكّر في تأمينها لهم في المستقبل، ما يجعله يصدّ شهواتهم ويدفعهم إلى كرهه إلى درجة أن يتمنوّا الخلاص منه بالموت حتّى يتمتّعوا بما يورّثه لهم[٢]، ما عدا، كما سنرى لاحقا في الحالة التي يتبع فيها الوارث سُنّة أبيه ويكون على مذهبه، بل أكثر تطرّفا منه، وهو ما حدا ببعضهم القول " ولو كانوا لأولادهم يجمعون

[١] حول القضايا التي تطرحها الوراثة بين المورِّث والمورَّث. انظر:
André Masson, Anne Gotman, « L'un transmet, l'autre hérite... », in *Économie & prévision,* Année 1991, 100-101, pp. 209-211

[٢] حول توتّر علاقة البخيل بأبنائه وزوجته بسبب المال انظر:
Ullrich Langer, « L’avarice dans l’éthique (plaisir, liberté, prudence) », in *Seizième Siècle,* Année 2008, 4, p71

ولهم يكدّون ومن أجلهم يحرصون لجعلوا لهم كثيراً ممّا يطلبون ولتركوا محاسبتهم في كثير مما يشتهون. وهذا بعض ما بغّض بعض المورثين إلى الوارثين وزهد الأخلاف في طول عمر الأسلاف(الجاحظ، البخلاء، ص ١٥٠).

يعلم البخيل علم اليقين– ولعلّ تتيّمه بالمال يعمي بصيرته عن ذلك– أنّ ما يجمعه من المال ويمنعه حتّى على نفسه سيذهب بعد موته إلى ورثته ولكنّ ذلك لا يمنعه وهو حيّ يُرزق مهما بلغ به العمر وحتّى إذا ما داهمته الشيخوخة أن يتنازل على أمواله وأملاكه لهم "وعبتموني حين قلت: لا يغترن أحد بطول عمره وتقوّس ظهره ورقّة عظمه ووهن قوته أن يرى أكرومته ولا يحرجه ذلك إلى إخراج ماله من يديه وتحويله إلى ملك غيره وإلى تحكيم السرف فيه وتسليط الشهوات عليه فلعله أن يكون مُعمّراً وهو لا يدري وممدوداً له في السنّ وهو لا يشعر. ولعله أن يُرزق الولد على اليأس أو يُحدث عليه بعض مخبآت الدهور مما لا يخطر على البال ولا تدركه العقول فيسترده ممن لا يرده ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه. وعبتموني حين زعمت أنّ التبذير إلى مال القمار ومال الميراث وإلى مال الالتقاط وحِباء الملوك أسرع (الجاحظ، البخلاء، ص ١٤).

ما أبعد البخيل أن يرتكب هذه الحماقة: أن يُطلق الحَمَام الذي بين يديه ثمّ يطارده في السماء للقبض عليه لأنّه بقدر تشاؤمه من مصير أمواله بين يدي ورثته لكون التبذير أسرع لمال الميراث[١]، بل تشاؤمه من عياله أنفسهم والتوجّس منهم مخافة إذا ما فرّط لهم في أرزاقه وهو على قيد الحياة، ليس على يقين من أن يغيثوه ويرحموه إذا احتاج للبعض القليل ممّا فرّط فيه لهم، فهو متفائل شديد التفاؤل لكونه لا يفقد الأمل في أن يعمّر طويلا ولربّما يُنجب ولدا في آواخر عمره "على اليأس" يكون من واجبه إعالته والإنفاق عليه. الحجّة الأخيرة تبدو واهية، كلمة حقّ يُراد بها باطل وهذا ما سنقف عليه لاحقا في تعلّل البخيل بعياله لإخفاء ولعه بالمال وتفضيله عليهم تلبية لرغبة دفينة في نفسه لا تُقاوم ولكن ما يقوله في شأن رفضه التفريط في ماله وممتلكاته لأبنائه في حياته لا يعدم الصواب والحكمة، فالبعض من الذين قاموا بذلك على امتداد التاريخ البشريّ وفي مجتمعات مختلفة قد ندموا ندما شديدا على فعلتهم وتجرّعوا مرارة الحرمان ونكران الجميل من فلذات أكبادهم.

بيد أنّ المتتبّع لنوادر البخلاء وأقوالهم في كتاب الجاحظ لا يجد عناء كبيرا في ملاحظة أنّ البخيل مهما بلغ ثراؤه يعتبر نفسه فقيرا لكونه لا يرى في عياله إلّا شبحا للفقر وعبئا ثقيلا تنوء بحمله الجبال، فعندما أتى ابن سكاب الصيرفي صديق له يستلف منه مالاً متوسّلا: " والله ما عندنا من شيء نعول عليه وقد بلغ السكين العظم"، لم يجد أفضل

[١] فعلا التلف أسرع إلى مال الميراث: انظر حول هذه المسألة:
André Masson, Anne Gotman, « L'un transmet, l'autre hérite... », in *Économie & prévision,* Année 1991, 100-101, pp.210 -211

من إجابته لإفحامه "يا أخي تضاعفت عليّ المصيبة حتى جمعت خلة (فقر)[١] عيالك إلى خلة عيالي"(الجاحظ، البخلاء، ص ١٣٦). ، بل أكثر من ذلك يعتبر البخيل عياله ضررا عليه وخطرا يتهدّده. ولذلك لم يتردّد أحد المراوزة عندما رأى مرّة رجلا يمصّ قصب السكّر قبل أن يجمع ما مصص ماءه ليلقي به في المزبلة " إن كنت لا تَتُّور لك ولا عيال فهبه لمن له تَتُّور وعليه عيال. وإياك أن تعوّد نفسك هذه العادة في أيام خفة ظهرك، فإنّك لا تدري ما يأتيك من العيال"(الجاحظ، البخلاء، ص ٢٣). أمّا محمّد الحزامي فقد فاجأ أصدقاءه وقد أتته هدايا فيها زِقاق دبس[٢] بأن قسّمها بينهم وهم الذين يعرفون" أنّ العطاء عدوّه والأخذ ضالته وأمنيته وإنه لو أعطى أفاعى سجستان وثعابين مصر وحيات الأهواز لأخذها إذا كان اسم الأخذ واقعاً عليها!" إلّا أنّه سرعان ما باح بسرّه بعد أن وقع التحقيق معه، فالاستفادة من الدبس يتطلّب نفقات كثيرة عدّدها واحدة بعد الأخرى والأفضل إذن التخلّص منه. ما يهمّنا في نادرة الحزامي هو أنّه انتهي إلى أن شبّه الدبس للنفقات الباهضة التي يتطلّبها بعياله وأقرّ بأنّه صار أضرّ عليه منهم[٣] وهو تشبيه فيه تشيئة (chosification) لأبنائه بدحرجتهم إلى مرتبة البضاعة والنظر إليهم ليس من منظار العاطفة باعتبارهم فلذات أكباده وإنّما من خلال قيم السوق الكمّية التي لا تعلو عليها في عينيه أيّ قيمة أخرى (الجويلي، ص٧١-٧٧)

وقد نعتقد أنّ البخيل يتمنّى في قرارة نفسه ألّا يكون قد أنجب عيالا أو أن يكون أنجب أقلّ ما يمكن منهم حتّى يستأثر بالمال الذي جمعه لنفسه لو لم نعلم أنّه يمنعه على نفسه قبل غيره، ولكنّه في كلّ الحالات سواء كان دون عيال، كثيرهم أو قليلهم، لا يغيّر من الأمر شيئا، وهو ما يثير استغراب المحيطين به كما يبدو ذلك في هذه الصرخة التي يطلقها أحد أصدقائه في وجهه :" ما هذا الحرص؟ وما هذا الكدّ؟ وما هذا الشغل؟ لو كنت شاباً بعيد الأمل كيف كنت تكون ولو كنت مَديناً كثير العيال كيف كنت تكون وقد رأيتك

فيما حدث تلبس الأطمار وتمشي حافياً نصف النهار(الجاحظ، البخلاء، ص ٩٥).

بيد أنّ ضرر العيال على أبيهم البخيل لا يتجلّى على أحسن ما يكون إلّا عندما يتعلّق الأمر بإطعامهم وإذا ما علمنا أنّ الاقتصاد في النفقة يتطلّب أن يربّي أبناءه على الصبر والملذّات وطيّبات الطعام والثمار، فلا غرابة إذن أن نرى البخيل لا يدّخر جهدا للفت انتباههم إلى الخطورة في الانسياق وراء الشهوة ودفعهم إلى كبح جماح ما يسمّيها بالنزوة الأولى لعيال مغرمين بطبعهم كجميع الأطفال في كلّ عصر بالجديد في كلّ شيء

[١] ومن ذلك المثل القائل " إذا جاءت الخلّة ذهبت الخلّة"، بمعنى إذا حلّ الفقر ذهبت المحبّة.
[٢] زِقاق جمع زَقّ وهو وعاء من جلد يُجزّ شعره ولا يُنتف للشراب وغيره والدبس هو عصير التمر.
[٣] اقرأ النادرة كاملة في كتاب البخلاء للجاحظ، ص ٤١ -٤٢

في المأكل والملبس[١] : "وسمعت [الكندي] يقول لعياله وأصحابه: اصبروا عن الرطب عند ابتدائه وأوائله وعن باكورات الفاكهة فإن للنفس عند كل طارف نزوة وعند كل هاجم نزوة. وللقادم حلاوة وفرحة وللجديد بشاشة وغرة، فإنك متى رددتها ارتدت ومتى ردعتها ارتدعت. والنفس عزوف ونفور ألوف. وما حملتها احتملت وإن أهملتها فسدت(الجاحظ، البخلاء، ص ٦٠). فاضمنوا لي النزوة الأولى أضمن لكم تمام الصبر وعاقبة اليسر وثبات العز في قلوبكم والغنى في أعقابكم ودوام تعظيم الناس لكم. (الجاحظ، البخلاء، ص ٦١).

غير أنّ البخيل لا يكتفي بالنظريّة وإنّما يعمل على ممارسة ما يراه صالحا لإطعام أبنائه في الحياة اليوميّة. فإذا كال لهم حبّا، فأوّل ما يراعي في ذلك هو بخس ثمنه على حساب جودته، فيكيل لهم من أسوء أنواع القمح والشعير وأكثره غلظة وخشونة متعلّلا بأنّ الناعم من الحبّ ضعيف "ونار المعدة شيطان! فإنما ينبغي لنا أن نطعم الحجر وما أشبه الحجر! (الجاحظ، البخلاء، ص ٣٩-٤٠). أمّا إذا طُحن الحبّ وصار دقيقا ثمّ أدخل إلى الفرن ليُطهى خبزا فشرط البخيل على خبّازه أن لا يطهو خبز عياله إلى حدّ النضج حتّى يقوم الرغيف للواحد منهم مقام الرغيفين أو حتّى يعافونه ويمسكون عن أكله "ولقد خبرني خباز لبعض أصحابنا أنه جلده على إنضاج الخبز وأنه قال له: أنضج خبزي الذي يوضع بين يدي واجعل خبز من يأكل معي على مقدار بين المقدارين. وأما خبز العيال والضيف فلا تقربنه من النار إلا بقدر ما يصير العجين رغيفاً وبقدر ما يتماسك فقط! فكلفه العويص. فلما أعجزه ذلك جلده حدّ الزاني الحُرّ"! (الجاحظ، البخلاء، ص ٣٧). ولكن إذا استوجب الأمر أن يطعم عياله ما يُعلف به في العادة الحيوان من الحوافر والغنم والماعز، فهو لا يتورّع من ذلك مبرّرا فعله بحجج طبّيّة [٢] محفّزا لهم قائلا" لا تلقوا نوى التمر والرطب وتعودوا ابتلاعه وخذوا حلوقكم بتسويغه فإن النوى يعقد الشحم في البطن ويدفئ الكليتين بذلك الشحم!... أنا أقدر أن أبتلع النوى وأعلفه النساء... ولكني أقول ذلك بالنظر مني لكم. وكان يقول: كلوا الباقلي بقشوره، فإن الباقلي يقول: من أكلني بقشوري فقد أكلني ومن أكلني بغير قشوري فأنا الذي أكله! (الجاحظ، البخلاء، ص ٦٨)

هكذا يبدو البخيل حريصا على صحّة أبنائه وسلامة أجسادهم يسوق الحجج الطبيّة التي تبدو أحيانا وجيهة رغم مبالغته في ذلك كأن يحذّر ابنه وهو يعلّمه آداب المؤاكلة من

---

[١] تهيمن على الطفل الرغبة في تلبية حاجاته وملذّاته على كلّ الرغبات الأخرى انظر حول هذه المسألة:
Henri Wallon, « Les étapes de la personnalité chez l'enfant », in *Enfance*, Année 1963, 16-1-2, p.77

[٢] يجنح البخيل في حواراته مع أبنائه ومع غيرهم من الذين يرغبون مشاركته في ماله إلى الحجاج ويستعمل في ذلك كلّ أساليب الحجاج. انظر حول علاقة الحجاج باللغة والعقل:
Jean-Michel Adam, « L'argumentation dans le dialogue », in *Langue française*, Année 1996, 112, pp. 31-49

مغبّة الإفراط في أكل اللّحم حتّى وإن كنّا نعلم أنّه يريد أن يستأثر به على مائدة الطعام على حساب ابنه: " وكان إذا كان يوم الرؤوس أقعد ابنه معه على الخوان. إلا أن ذلك بعد تشرط طويل وبعد أن يقف به على ما يريد! وكان فيما يقول له: إياك ونهم الصبيان وشره الزراع وأخلاق النوائح. ودع عنك خبط الملاحين والفعلة ونهش الأعراب والمهنة. وكل ما بين يديك فإنما حقك الذي وقع لك وصار أقرب إليك. وأعلم أنه إذا كان في الطعام شيء طريف ولقمة كريمة ومضغة شهية فإنما ذلك للشيخ المعظم والصبي المدلل. ولست واحداً منهما... وعهدك باللحم قريب وإخوانك أشد قرماً إليه منك. وإنما هو رأس واحد. فلا عليك أن تتجافى عن بعض وتصيب بعضاً. وأنا بعد أكره لك الموالاة بين اللحم فإن الله يبغض أهل البيت اللحمين... أهلك الرجال الأحمران: اللحم والخمر وأهلك النساء الأحمران: الذهب والزعفران(الجاحظ، البخلاء، ص ٧١-٧٢).

البخلاء مولعون بالحجج الطبيّة يستعملونها لصدّ الطامعين في مؤاكلتهم وكذلك لتبرير تقشّفهم وإطعام عيالهم ما زهد ثمنه من الطعام مع الرفع من قيمته الغذائية، فيتحوّل زهيد الثمن لمنافعه ذا قيمة كبيرة لمن هو حريص على سلامة أبنائه وهذا ما نلاحظه في النصيحة التي قدّمها أحمد بن خلف اليزيدي[١] لأحد أصدقائه يدعوه فيها إلى إطعام أبنائه المثلثة(الجاحظ، البخلاء، ص ٢٩). لا لفوائدها الصحّية عليهم فقط وإنّما كذلك لكون الوجبة منها تقوم مقام الوجبتين ويسهل معها إدغام الغداء في العشاء، علاوة على وظائفها الأخرى مثل التدفئة في الشتاء وفي كلّ ذلك يبدو الرجل حريصا على الاقتصاد في الطاقة ونظافة البيئة بقدر حرصه على كلّ من سلامة أبنائه ومحيطه كما أسلفنا القول"وقال لي مبتدئاً مرّة عن غير مشورة وعن غير سبب جرى: انظر أن تتخذ لعيالك في الشتاء من هذه المُثَلِّثَة، فإنّها عظيمة البركة كثيرة النَّزَل. وهي تنوب عن الغداء. ولها نَفْخَة تُغني عن العشاء. وكلّ شيء من الأحساء، فهو يغني عن طلب النبيذ وشرب الماء. ومن تحسّى الحار عرِق. والعرق يُبيِّض الجلد ويخرُج من الجوف. وهي تملأ النفْس وتمنع من التشهي. وهي أيضاً تدفئ فتقوم لك في أجوافهم مقام فحم الكانون من خارج. وحَسْو طار يُغني عن الوقود وعن لُبس الحَشْو. والوقود يُسوِّد كلَّ شيء ويَيَبِّسُهُ. وهو سريع في الهضم وصاحبه مُعَرَّض للحريق ويذهب في ثمنه المال العظيم. وشرُّ شيء فيه أنّ مَن تعوّده لم يُدفئه شيء سواه. فعليك يا أبا عثمان بالمُثُلثة! واعلم أنها لا تكون إلاّ في منازل المشيخة وأصحاب التجربة. فخذها من حكيم مجرب ومن ناصح مشفق"(الجاحظ، البخلاء، ص ٢٩).

---

[١] يعرّفه الجاحظ قائلا: " ومن طياب البخلاء أحمد بن خلف اليزيدي. ترك أبوه في منزله يوم مات ألفي ألف درهم وستمائة ألف درهم وأربعين ومائة ألف دينار. فاقتسمها هو وأخوه حاتم قبل دفنه. وأخذ أحمد وحده ألف ألف وثلثمائة ألف درهم وسبعين ألف دينار ذهباً عيناً مثاقيل وازنة جياداً سوى العروض"، المصدر نفسه، ص ٢٩

وفي الحقيقة ليس ثمّة غرابة في الأمر حين نتمعّن في نظرية البخيل في الأبوّة والبنوّة. فهو يحسد الملائكة على نعمتها، فيقول: " لو لم تعرفوا من كرامة الملائكة على الله إلا أنه لم يبتلهم بالنفقة ولا بقول العيال: هات لعرفتم حالهم ومنزلتهم(الجاحظ، البخلاء، ص ٢٩). الملائكة كما نعلم كائنات نورانيّة ولا جنسيّة، ومن ثمّة فهي لا تتزوّج ولا تنجب أبناء ينغّصون عليها سعادتها بالطلب الدائم"هات هات" وهذا في رأي البخيل فضل من الله عليها كبير وكأنّ الإنسان في نظره قد ابتُلِي بالجنس ومن ثمّة الإنجاب[١]. الجنس في نظره لعنة وخطيئة كبرى قد لا تضاهيها فداحة إلّا الخطيئة الأولى التي اقترنت بخلق النوع الإنساني الجنسيّ بطبعه وإنزاله إلى الأرض والمتمثّلة في الأكل من الشجرة التي نهى الله عن الأكل منها في الجنّة. تستبدّ متعة المال بالبخيل وتصيّره إلى كائن مرضيّ تنتفي لديه كلّ المتع الأخرى بما في ذلك متعة الجنس ويعيش تبعا لذلك عقدة أشبه بعقدة المخصي أو العاجز إنْ لم يكن على ممارسة الجنس، فعلى الأقلّ عدم التمتّع به لهوسه بتبعاته المتمثّلة في إنجاب الأبناء وإلّا ما كان ليتمنّى في قرارة نفسه أن يكون من الملائكة. المال في نظر البخيل زينة الحياة الدنيا أمّا البنون فلا[٢]. يقبل البخيل عن طيب خاطر نصف المقولة القرآنية ويرفض ضمنيّا النصف الآخر، بل يقلبه رأسا على عقب معتبرا أنّ العيال هم الوجه القبيح منها. نستشفّ ذلك من تعريفه لهم : "والعيال عيالان: شهوة مفسدة وضرس طحون. وأكل الشهوة أثقل من أكل الضرس. وقد زعموا أن العيال سوس المال وأنه لا مال لذي عيال. وأنا أقول: إن الشهوة تبلغ ما لا يبلغ السوس وتأتي على ما يقصر دونه العيال. وقد قال الحسن: ما عال أحد قط عن قصد. وقيل لشيخ من أهل البصرة: مالك لا ينمي لك مال قال: " لأني اتخذت العيال قبل المال واتخذ الناس المال قبل العيال (الجاحظ، البخلاء، ص١٣٢).

ليس ثمّة أبلغ من القول: " العيال سوس المال" لبعبّر البخيل عن الضرر الكبير الذي يلحقونه بمال أبيهم، كناية عن النفقات الهائلة التي يتطلّبها إطعامهم وكسائهم وتلبية حاجاتهم ورعايتهم رغم ما في هذا القول من المبالغة والتشاؤم من الأبناء، وهو قول قد لا يجد في

---

[١] على عكس رؤية الإسلام للجنس الذي يعتبره فضلا من الله على الإنسان حتّى يجدّد وجوده في الكون، هناك في بعض الديانات الأخرى تدنيس للجنس باعتباره خطيئة يُنزّه عنها البشر الطاهرون مثل مريم وعيسى وكذلك الكهنة الذين يُحرّم عليهم في الكنيسة الكاتوليكيّة الزواج لهذا السبب. انظر حول هذه المسائل:

- Hamès Constant , « La Sexualité en Islam», in *Archives de Sciences Sociales des Religions,* Année 1976, 41, pp. 205-206.

- Jean-Claude Schmitt , Jérôme Baschet, « La sexualité du Christ», in *Annales,* Année 1991, 46-2, pp. 337-346.

- Robert Sauzet, « Marcel Bernos. Sexualité et religion », in *Revue de l'histoire des religions,* Année 1989, 206-4, pp. 425-426

[٢] ﴿ المالُ والبَنُونُ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾. (٤٦ من سورة الكهف)

عصرنا وليس في عصر الجاحظ فحسب دعاة تحديد النسل من كلّ الأمم أفضل منه شعارا للتحفيز على التقليص أكثر ما يمكن من الإنجاب للتخفيف من أعباء النفقات العائليّة والتخفيض من حدّة الفقر[١]. هنا يظهر البخيل بمظهر الفيلسوف الحكيم المتأمّل في سير الوجود الاجتماعي الذي انتهى به تأمّله إلى الإقرار بحقيقة " أنّه لا مال لذي عيال" مهما كثر ماله وهذا ما نقف عنده في قول أحد البخلاء الذي باع دارا له بخمسة وأربعين ألف دينار، وهو مبلغ هائل في عصر الجاحظ" فقيل له: أصبحت كثير المال. قال: وما منفعة خمسة وأربعين ألفاً مع ستة من العيال"[٢](الجاحظ، البخلاء، ص ٩٨).

غير أنّ تأمّل البخيل الفلسفي الاجتماعي لا يقف عند هذا الاستنتاج وإنّما يتجاوزه إلى التفريق بين صنفين من العيال : الشهوة المفسدة والضرس الطحون في ما يشبه إطلاق الجزء على الكلّ، أي إطلاق رغبة نفسية (الشهوة) وشيء مادي (ضرس) على كائنات من لحم ودم وفكر وشعور واختزالهم فيهما وتجريدهم تبعا لذلك من كينونتهم الإنسانيّة. الشهوة مفسدة بإجماع كلّ الفلاسفة على مرّ العصور لكونها رغبة لا يمكن إشباعها ولذلك يعتبرونها مرضا يصيب النفس وعائقا يحيل دون الحكم السليم لكونها تغشي الأبصار وتحجب عنها الحقيقة ولذلك فهي والعقل على طرفي نقيض(Nicole Avril 2006, p363) أمّا الضرس الذي هو بطبعه خُلق للطحن والهرس، فهو وإنْ لا يكلّ ولا يملّ على مدار الساعات والأيّام، وهنا تكمن خطورته التي تتمثّل في قدرته على الإجهاز على كلّ ما يقع عليه من المأكولات، فهو لا يرتقي إلى مستوى خطورة الشهوة لكونه شيئا محسوسا ماديا مهما بلغت قدرته على التدمير، فله طاقة لا يستطيع تجاوزها ويمكن على الأقلّ نظريّا السيطرة عليه ومحاصرته، بينما الشهوة لكونها من النفس، فهي ليست من جنس المحسوسات، وضررها لا حدّ له لكونها لا تمتلك حدودا أصلا، ومن ثمّة فالسيطرة عليها من المُحال. وهذا ما يفزع البخيل ويقضّ مضجعه.

لقد خلنا والبخيل لا يقرن العيال إلّا بالمفسدة والضرر، أنّه لن يكتفي بالدعوة إلى قطع دابر مَن هم من الأحياء فحسب، وإنّما كذلك إلى إجهاض مَن هم في أرحام أمّهاتهم، بل

---

[١] مازال الجدل متواصلا حول التقليص من الإنجاب لحلّ مشكلة الفقر خاصة لدى الشعوب غير الغربيّة التي تعرف ولادة مكثّفة في حين أنّ بعض الدول الغربيّة تشجّع على الإنجاب لانخفاض المواليد لديها : انظر حول هذه المسألة:

- Jacques Houdai, Borrie W. D. " The Growth and Control of World Population", in *Population* Année 1971, 26-4, p. 766.

- M-J F, "Family Planning and Population Programs", in *Population*, Année 1967, 22-5, pp. 934-935

[٢] انظر حول خطورة الشهوة (La passion) باعتبارها هياما وتعلّقا شديدا بالشيء بغشي التفكير العاقل الرصين:

Frédéric Rognon, *Les passions Textes expliqués – sujets analysés*, Paris, Le philosophe (sur compte d'auteur), pp.6-7

الدعوة إلى قطع دابر النسل والإنجاب بتعميم العقر على جميع الأحياء ولكنّه على خلاف ذلك يبدو حريصا على مصلحة عياله إذا طمع الناس في ماله : شعاره في ذلك الأقربون أولى بالمعروف ويذهب إلى حدّ ابتزاز غيره لينعم أبناؤه بخيرات الآخرين وليس خيراته كما يفعل الكندي مؤجّر الديار الذي كان" لا يزال يقول للساكن وربما قال للجار: إنّ في الدار امرأة حمل. والوحمى ربما أسقطت من ريح القدر الطيبة! فإذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة فإن النفس يردها اليسير! فإن لم تفعل ذلك بعد إعلامي إياك فكفارتك... فكان ربما يوافى إلى منزله من قصاع السكان والجيران ما يكفيه الأيام... وكان يقول لعياله: أنتم أحسن حالاً من أرباب هذه الضياع: إنما لكل بيت منهم لون واحد. وعندكم ألوان! (الجاحظ، البخلاء، ص ٥٢). يحرص البخيل على عياله حرصا شديدا أو هكذا يسوّق هذه الصورة لنفسه في أعين الآخرين. يمنع المال عنهم وعن غيرهم بتعلّة رغبته في أن يترك لهم بعد رحيله عن الدنيا ما يرثونه عنه من متاعها مخافة كما يقول: "أن يلعنه بعد الممات ولده(الجاحظ، البخلاء، ص ١١٣-١١٤). تارة يطلق عقيرته بالصراخ مظهرا شفقته على أبنائه من ضيف طفيليّ أكول متسائلا " كيف تصلح الدنيا وكيف يطيب العيش مع مَن أتى بجنب شواء اكتسح كل شيء عليه لا يرحم ذا سن لضعفه ولا يرق على حدث لحدة شهوته ولا ينظر للعيال ولا يبالي كيف دارت بهم الحال؟".(الجاحظ، البخلاء، ص ٤٥). وطورا يهاجم المترفين ممَّن يسمّيهم بالمبذّرين "إخوان الشياطين" المتمتّعين بأموالهم والذين على خلافه لا يجمعونها إلّا لينفقونها على شهواتهم ولذّاتهم معلنا ومؤكّدا أنّ متعته، بل لذّته الأولى والأخيرة لا تتحقّق إلّا بقدرته أن يلبّي لعياله حاجتهم وفي ذلك لذّة الحياة الدنيا :" تنعمتم بالطعام الطيب وبالثياب الفاخرة وبالشراب الرقيق وبالغناء المطرب وتنعمنا بعز الثروة وبصواب النظر في العاقبة وبكثرة المال والأمن من سوء الحال ومن ذل الرغبة إلى الرجال والعجز عن مصلحة العيال – فتلك لذتكم وهذه لذتنا. (الجاحظ، البخلاء، ص ١٠٠).

لكنّ البخيل لا يكتفي فقط بأن يظهر حرصه على عياله هو، بل ينتصب مدافعا على عيال غيره، العيال في المطلق حريصا على كلّ أطفال العالم منكودي الحظّ الذين لم ينعموا بآباء مثله يقتصدون في النفقة وينمّون المال بجمعه ومنعه، فيقدّم النصيحة تارة مؤنّبا " وأنت تريد أن تغني عيال غيرك بإفقار عيالك وتسعد الغريب بشقوة القريب(الجاحظ، البخلاء، ص ٥٩-٦٠). وتارة في ثوب الواعظ والمرشد: " فإن كان مالك قليلاً فإنما هو قوام عيالك وإن كان كثيراً فاجعل الفاضل لعدة نوائبك. ولا يأمن الأيام إلا المضلل ولا يغتر بالسلامة إلا المغفل (الجاحظ، البخلاء، ص ١٢٥). أمّا إذا لم يجد آذانا صاغية لحكمه ومواعظه، فهو لا يجد أفضل من النقل يلتجأ إليه لإفحام خصومه وتبرير ما عجز عن الوصول إليه بالحجج العقليّة المنطقيّة. وهنا ليس ثمّة أفضل من أحاديث الرسول يتّكئ عليها لتبرير

موقفه والإخراج من الملّة المحمّدية كلّ من يعارضه[١] يسردها الواحد بعد الآخر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ابدأ بمن تعول ".(الجاحظ، البخلاء، ص ٥٩-٦٠). وفي حديث آخر " إنك إن تدع عيالك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس " قبل أن يعلّق عليها بالقول: " ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرحم عيالنا إلا بفضل رحمته لنا. فكيف تأمروني أن أوثر أنفسكم على نفسي وأقدم عيالكم على عيالي وأن أعتقد الثناء بدلاً من الغنى وأن أكنز الريح وأصطنع السراب بدلاً من الذهب والفضة(الجاحظ، البخلاء، ص٦٠).

ولكنّ هذا الحرص الذي يظهره البخيل على عياله يخفي في الحقيقة حرصه على نفسه ونرجسيته المفرطة، بحيث يستعملهم مجرّد ذريعة لصرف الناس عنه أحيانا في أبسط الأشياء وأزهدها ثمنا وقيمة مثل حبّات من الرطب أو التمر أو رغيف خبز وما شابه ذلك، أي حجّة للمنع كما يستعمل الغضب [٢]وغيره من آليات الدفاع لصدّ الآخرين عن الطمع فيه. وهذا ما فطن إليه معارضوه كما نلاحظ في هذا القول:" ولو كانوا لأولادهم يجمعون ولهم يكدّون ومن أجلهم يحرصون لجعلوا لهم كثيراً مما يطلبون ولتركوا محاسبتهم في كثير مما يشتهون. ولو كانوا لأولادهم يمهّدون ولهم يجمعون لما جمع الخصيان الأموال ولما كنز الرهبان الكنوز ولاستراح العاقر من ذل الرغبة ولسلم العقيم من كد الحرص(الجاحظ، البخلاء، ص ١٠٥). ومن ثمّة فإنّ حرصهم على العيال يخفي حرصهم في الحقيقة على المال لطبع فيهم مهما حاولوا عبثا أن يضفوا عليه مسحة أخلاقية: التفكير في مصلحة عيالهم والشفقة عليهم وهو ما يؤكّد عليه الجاحظ المعتزلي في هذا القول الذي لا نشكّ في أنّ القول قوله حتّى وإنْ نسبه إلى غيره عندما يسوق أمثلة عن أنماط اجتماعيّة أخرى مثل الخصيان والعُقَّر والرهبان الذين ليس لهم عيال ولكن تستبدّ بهم الرغبة في جمع المال، ما يدلّ على أنّه لا صلة للأمر بمحبّة الأولاد والشفقة عليهم وإنّما بطبيعة الشخص وتركيبته النفسيّة والذهنيّة. بيد أنّه إذا كان الحرص الذي يبديه البخيل على سعادة أبنائه شفقة عليهم هو مجرّد تعلّة تخفي حرصه على نفسه وماله تنصّلا من الإنفاق عليهم، فإنّه على العكس من ذلك يبدو صادقا في حرصه على تربيتهم على مبادئه في الاقتصاد في النفقة وتنمية المال بالجمع والمنع حتّى لا يفرّطوا فيما سيورّثه لهم[٣]، مع ما يتطلّب ذلك من قمع للشهوات وصبر

[١] استأثر استعمال المقدّس في الصراع بين البخلاء وخصومهم باهتمام محمد الجويلي في كتابه نحو دراسة في سوسيولوجية البخل في فصل " الصراع حول امتلاك النصّ"، (ص ١٦١- ١٦٦). ولكنّه مازال في حاجة إلى الدرس ولربّما نعود إليه لاحقا في مقال آخر.

[٢] يحذّر البخيل عياله من الشهوة ولكنّه يقع في ما يشبهها من الموانع التي تعيق المرء على أن يتصرّف بعقله مثل الغضب. الشهوة والغضب من سجلّ واحد مناقض للعقل : انظر حول هذه المسألة:
Janine Fillion-Lahille, « La colère chez Aristote », in *Revue des Études Anciennes*, Année 1970, 72-1-2, pp. 49-50

[٣] يعمل البخيل مقابل توريث أبنائه ماله على أن يتبنّوا القيم التي يؤمن بها: انظر :

وتضحية تارة متكئا على حكماء العرب مثل أبو الأسود الدؤلي الذي يصفه بكونه كان حكيماً أديباً وداهياً أريباً حين نهى ابنه قائلا : إذا بسط الله لك الرزق فابسط وإذا قبض فاقبض. ولا تجاود الله فإن الله أجود منك (الجاحظ، البخلاء، ص ١٥). وتارة معوّلا على نفسه وعلى ما تجود به عليه قريحته من الحجج وهذا ما نلاحظه في خطب الوعظ والإرشاد التي يلقيها البخلاء على مسامع أبنائهم[١]. من بين الخطب الوعظية في كتاب البخلاء والتي تترجم نظريّة البخلاء في الإنفاق ما قاله أبو عبد الرحمان لابنه " أي بني إن إنفاق القراريط يفتح عليك أبواب الدوانيق وإنفاق الدوانيق يفتح عليك أبواب الدراهم وإنفاق الدراهم يفتح عليك أبواب الدنانير. والعشرات تفتح عليك أبواب المئين والمئون تفتح عليك أبواب الألوف حتى يأتي ذلك على الفرع والأصل ويطمس على العين والأثر ويحتمل القليل والكثير[٢]! ولكنّ أشهرها هي الخطبة الوصيّة التي ألقاها على ابنه خالد بن يزيد الملقّب بخالويه الذي جمع بين البخل والكدية[٣] وهو على فراش الموت. تكتسي هذه الوصيّة الطويلة أهميّة بالغة وتتطلّب في نظرنا مقالا أو مقالات مستقلّة بذاتها سواء من وجهة نظر لسانيّة لتفكيك آليات الحجاج فيها أو لدراسة الأساليب البلاغيّة المعتمدة فيها أو من زاوية تاريخ الأدب لكونها لربّما مهّدت لجنس المقامات مع بديع الزمان الهمذاني الذي جعل الكدية موضوعا أساسيّا فيها أومن زاوية علم الاجتماع لكونها تكشف عن نمط حياة شريحة اجتماعية مهمّشة في العصر العبّاسي اعتمدت الحيلة والخداع أسلوبا للتكسّب.

سنقتصر على ما يهمّنا مباشرة في هذه الوصيّة في علاقة اليزيدي بابنه ونبدأ بأسلوبها التعليمي الذي أوّل ما يظهر في استعمال النداء في صيغة النهر يدعّمه بنعت سلبيّ له مفعول الصدمة يتعلّق بأمّه لاستفزازه حتّى يصغي إليه بانتباه شديد: " يا بن الخبيثة! إنك

André Masson, Anne Gotman, « L'un transmet, l'autre hérite... », in *Économie & prévision*, Année 1991, 100-101, pp. 210-211

[١] خطاب البخيل بصفة عامة وخاصة خطابه الموجّه لأبنائه هو في جوهره خطاب سلطة ذي خلفيّة إيديولوجية لكون البخيل يسعى من خلاله إلى استمالتهم لمذهبه ومن ثمّة فهو محكوم باستراتيجية محكمة يوظّف فيها كلّ أنواع الحجاج والأساليب البلاغية وتقنيات السرد والتواصل ليصل إلى غايته التي نلاحظها في كلّ خطاب سلطوي ايديولوجي. انظر حول خطاب السلطة:

, «Discours du pouvoir, discours idéologique », in *Raison présente*, Année 1976, 38, pp. 71-78 Gérard Chalendar

[٢] يواصل أبو عبد الرحمان قائلا لابنه محذّرا له من مغبّة الإفلاس الذي يقود إلى الانحراف "أي بني إنما صار تأويل الدرهم: دار لهم وتأويل الدينار: يدني إلى النار الدرهم إذا خرج إلى غير خلف وإلى غير بدل دار لهم على دوانق مخرجة. وقيل: إن الدينار يدني إلى النار لأنه إذا أنفقته في غير خلف وأخرج إلى غير دل بقيت مخفقاً معدماً وققيراً مبلطاً. فيخرج الخارج وتدعو الضرورة إلى المكاسب الردية والطعم الخبيثة.

[٣] يقول فيه الجاحظ: " وهذا خالد بن يزيد مولى المهالبة. هو خالويه المكدى. وكان قد بلغ في البخل والتكدية وفي كثرة المال المبالغ التي لم يبلغها أحد... وكان قاصّا متكلّما، بليغا داهيا. وكان أبو سليمان الأعور وأبو سعيد المدائني القاصان من غلمانه". الجاحظ، البخلاء، ص٣١-٣٢

انظر هذه الخطبة الطويلة كاملة وتعريف الجاحظ لأصناف المكدّين التي وردت فيها في كتاب البخلاء، ص ٣١-٣٦

وإن كنت فوق أبناء هذا الزمان فإن الكفاية قد مسختك ومعرفتك بكثرة ما أخلف قد أفسدتك. وزاد في ذلك أن كنت بِكْرى وعِجْزة أمك.(الجاحظ، البخلاء، ص ٣٤) يلوّح اليزيدي بالعصا والجزرة. يقرّ لابنه بأنّه يحبّه لأنّه بكره والبكر في العادة تظلّ مكانته الأفضل في قلب أبيه وأنّ هذه المحبّة هي التي جعلته يكابد الصعاب ويركب المخاطر من أجل ألّا يتركه بعد مماته فقيرا مبلّطا معدما، هذا التصريح بحبّه له يهدف إلى استعطافه واستمالته ولذلك نراه لا يغفل عن ترديده من حين إلى آخر على مسامعه استنهاضا لهمّته كما في هذا المقطع :" ولست أرضاك وإن كنت فوق البنين ولا أثق بك وإن كنت لاحقاً بالآباء لأني لم أبالغ في محبتك. أني قد لابست السلاطين والمساكين وخدمت الخلفاء والمكدين وخالطت النساك والفتاك وعمرت السجون كما عمرت مجالس الذكر وحلبت الدهر أشطره وصادفت دهراً كثير الأعاجيب. فلولا أني دخلت من كل باب وجربت مع كل ريح وعرفت السراء والضراء حتى مثلت لي التجارب عواقب الأمور وقربتني من غوامض التدبير لما أمكنني جمع ما أخلفه لك ولا حفظ ما حبسته عليك(الجاحظ، البخلاء، ص ٣٣).

ولكن حتّى يواصل الإصغاء إليه جيّدا ويخضعه خضوعا تاما له، لا بدّ لليزيدي من أن يبرز تفوّقه على ابنه إثباتا لسلطته الأبويّة الأدبيّة عليه حتّى يطبّق نصائحه دون تردّد بعد موته[١]. ولنجاح خطّته يستوجب الأمر أن يضع ابنه موضع ضعف بالتأكيد على هناته ومواطن الوهن والخلل في شخصيته. فضلا عن اتهامه بالفساد لمعرفته بما خلّفه له لا يفوّت فرصة في هذه الوصيّة دون أن يذكّره بعدم رجاحة عقله ووقوف ملكة التفكير لديه في الحسّي دون إدراك المجرّد وركوبه لأهوائه ونزواته وقصوره على معرفة بواطن الأمور وعللها: "ولولا علمي بضيق صدرك، ولولا أن أكون سببا لتلف نفسك، لعلّمتك الساعة الشيء الذي بلغ به بقارون، وبه تبنكت خاتون... ولو كنت عندي مأمونا على نفسك لأجريت الأرواح في الأجساد، وأنت تبصر ما كنت لا تفهمه بالوصف، ولا تحُقّه بالذكر(الجاحظ، البخلاء، ص ٣٣) وأنت غلام لسانك فوق عقلك وذكاؤك فوق حزمك. لم تَعْجُمك الضراء ولم تزل في السراء. والمال واسع وذَرِعُك ضيق"(الجاحظ، البخلاء، ص ٣٤).

أحد مضامين الرسالة التي يودّ اليزيدي تبليغها لابنه هو التأكيد له أنّه لم يرتق بعْدُ ليصبح مفخرة له، ما يزيد في مصداقية ما يقوله له أنّه على فراش الموت يلقي عليه خطبة الوداع، ولحظة إحساس المرء بقرب أجله هي لحظة صدق بامتياز وتأثيرها في المتلقّي

[١] اللّغة في حدّ ذاتها سلطة يستعملها البخيل لإثبات ضعف ابنه ومن ثمّة إثبات سلطته عليه، انظر حول اللغة والسلطة:

Pierre Bourdieu, « Le langage autorisé : Note sur les conditions sociales de l'efficacité du discours rituel », in *Actes de la Recherche en Sciences Sociales*, Année 1975, 1-5-6, pp. 183-190

خاصة إذا كان ابنا يكون له في العادة وقع كبير على نفسه. علاوة على ذلك يعمد خالد إلى التكرار وهو من الأساليب الناجعة في تعليم الصبيان [١] وما يتبعه من تذكير والذكرى تنفع المؤمنين، فيخاطب ابنه "ولم أحمد نفسي على جمعه كما حمدتها على حفظه لأن بعض هذا المال لم أنله إلّا بالحزم والكيس. قد حفظته عليك من فتنة الأبناء ومن فتنة النساء ومن فتنة الثناء ومن فتنة الرياء ومن أيدي الوكلاء فإنهم الداء العياء(الجاحظ، البخلاء، ص ٣٣). لينتهي في مرحلة أولى إلى تحذيره من الناس وطمعهم فيه: " وليس شيء أخوف عليك عندي من حسن الظن بالناس فاتهم شمالك على يمينك وسمعك على بصرك. وخف عباد الله على حسب ما ترجو الله (الجاحظ، البخلاء، ص ٣٤-٣٥) .وإلى دعوته دعوة صريحة إلى أن يسلك سبيله حتّى لا يفوز برضاه "وما رضاء الله إلّا في رضاء الوالدين" فحسب وإنّما بالخصوص لكونه السبيل الوحيد لخلاصه وسعادته وسيادته محذّرا له من أنّ سلك سبيل آخر سيجعله في مقام العبد بدل السيّد وفي منزلة التابع لا المتبوع وهذا ما لايرضاه أب مثالي لفلذة كبده: " فإن سلكت سبيلي صار مال غيرك وديعةً عندك وصرت الحافظ على غيرك. وإن خالفت سبيلي صار مالك وديعةً عند غيرك وصار غيرك الحافظ عليك. (الجاحظ، البخلاء، ص ٣٣).

قبل أن نعود إلى خالد وابنه لنرى ما إذا كان سيلتزم بوصيّة أبيه أم لا وسيتّبع سنّته أو يتركها، لا بدّ من لفت الانتباه إلى أنّه هناك الكثير من النوادر في كتاب البخلاء تعطي الانطباع بأنّ البخل ينتقل بالوراثة من الأب إلى ابنه، وراثيّة بيولوجية يحملها في "جيناته" ودمه كما يرث عنه بعض ملامحه الجسديّة كما يذهب إلى ذلك مثل شعبي يقول " ابن الفاريكون حفّارا". هذا ما نفهمه من شهادة لأحمد بن رشيد :" قال: كنت عند شيخ من أهل مرو وصبي له صغير يلعب بين يديه فقلت له إما عابثاً وإما ممتحناً: أطعمني من خبزكم قال: لا تريده هو مر! فقلت: فاسقني من مائكم قال: لا تريده هو مالح! قلت: هات من كذا وكذا قال: لا تريده هو كذا وكذا! إلى أن عددت أصنافاً كثيرة. كل ذلك يمنعنيه ويبغضه إلي! فضحك أبوه وقال: ما ذنبنا هذا من علمه ما تسمع! يعني أن البخل طبع فيهم وفي أعراقهم وطينتهم(الجاحظ، البخلاء، ص ١٦). لا يخفى علينا أنّ تعليق كلّ من أب الصبيّ البخيل وراوي النادرة رغم ما يبدو عليهما من تناقض: الأوّل يرجع بخل الصبيّ إلى علمه المكتسب الذي لا مسؤولية فيه للأب والثاني يفسّره بالعامل الوراثي والعرقي باعتبار أنّ البخل مكوّن أساسي في طينة المراوزة يجري في دمائهم وعروقهم كما يجري في مائهم

[١] التكرار أسلوب تعليمي هدفه تدريب الصبيّ الذي تقوده الغريزة نماما كما يُدرّب الحيوان الأهلي على الاستقامة وحسن السلوك كما يذهب إلى ذلك بعض علماء التربية: انظر:
Hubert Vincent, « Enseigner, dresser », in *Revue de recherches en éducation*, Année 1994, 12, pp. 127-128

وتربتهم يحجب عنّا العامل الحقيقي والأساسي المتمثّل في التربية[١] أي في تنشئة الطفل على أخلاق أبيه الذي بدوره انتقلت إليه من والده، أي من جدّ إلى حفيد كما نقرأ في هذه النادرة: " وقال لي الرجل: أكلنا عنده يوماً وأبوه حاضر وبُنيّ له يجيئ ويذهب. فاختلف مراراً. كل ذلك يرانا نأكل. فقال الصبي: كمْ تأكلون لا أطعم الله بطونكم! فقال أبوه وهو جّدُّ الصبي: ابني ورب الكعبة! (الجاحظ، البخلاء، ص ٣١). فبفعل المعايشة اليوميّة وكذلك لعامل نفسيّ يجعل الطفل يتماهى في شخصيّة أبيه ويتقمّصها في مرحلة صباه [٢] كثيرا ما يفلح البخيل في أن يكون ابنه نسخة مطابقة له، فها أنّنا نرى قاسم الذي يعرّفه الجاحظ بكونه " شديد الأكل شديد الخبط قذر المؤاكلة. وكان أسخى الناس على طعام غيره وأبخل الناس على طعام نفسه" يجرّ معه ابنه إبراهيم إلى موائد غيره من الطعام ليعيث معه فيها فسادا وإبراهيم" يعارض والده ويحاكيه" وكان كما يضيف الجاحظ" بينه وبين إبراهيم ابنه في القذر ما بينه وبين جميع العالمين! فكانا إذا تقابلا على خوان ثمامة لم يكن لأحد على أيمانهما وشمائلهما حظ في الطيبات! (الجاحظ، البخلاء، ص ١٢٨-١٢٩).

غير أنّه لا بدّ لتماهي الابن في شخصيّة أبيه في مرحلة الطفولة من نهاية مع انتقاله إلى مرحلة الشباب والنضج حين يتوجّب عليه أن يشقّ طريقه في الحياة بنفسه وينحت شخصيّة مستقلّة عن والده وإلّا فإنّه سينتهي بتكراره واجتراره، وهو عين الفشل ففي التكرار والتقليد ليس ثمّة إبداع واجتهاد وتجاوز. وقد نظنّ في لحظة ما أنّ ابن البخيل قد يذهب إلى أكثر المنازع تطرّفا في الانقلاب على والده، لا سيّما بعد موته ويعتنق المذهب المعادي له، مذهب "ثقيف وقريش" في الكرم[٣]، إلّا أنّنا على العكس من ذلك نلاحظ أنّ الابن وإنْ تطرّف فلن يكون ذلك إلّا في المذهب الذي اختاره له أبوه. تركنا خالد اليزيدي على فراش الموت يوصي ابنه ويلقي عليه خطبة الوداع ، بعد أن مات يعلمنا الجاحظ قائلا" كفنه ابنه ببعض خلقانه وغسله بماء البئر ودفنه من غير أن يضرح له أو يلحد له ورجع. فلما صار في المنزل نظر إلى جرة خضراء معلقة. قال: أي شيء في هذه الجرة قالوا: ليس اليوم فيها شيء. قال: فأي شيء فيها قبل اليوم قالوا: سمن. قال: وما كان يُصنَع به قالوا: كنا في الشتاء نلقي له في البرمة شيئاً من دقيق نعمله له فكان ربما برقه بشيء من سمن. قال:

---

[١] أوّل ما يتعلّم الطفل ما ينبغي له وما لا ينبغي فعله في عائلته ومن والديه بفعل التربية: كأن يُربّى على البخل أو الاقتصاد في النفقة أو على الكرم ولربّما التبذير ولا دخل للعوامل البيولوجيّة في ذلك. انظر:
Jean-Pierre Rosenzweig, «Comment se structure l'idée de loi chez l'enfant dans la famille«, in *Enfance*, Année 1992, 46-3, pp. 181-187

[٢] حول تماهي الطفل في شخصية أبيه: انظر:
J.-P. Leyens, « L'identification comme processus d'apprentissage », in *L'Année psychologique*, Année 1968, 68-1, pp. 251-252

[٣] انظر رسالة أبي العاص الثقفي التي يتهجّم فيها على البخلاء قائلا: " وما هذا المذهب من أخلاق ضميم ثقيق، ولا من شيم أعْرقت فيها قريش". الجاحظ، البخلاء، ص١٠١

تقولون ولا تفعلون! السمن أخو العسل. وهل أفسد الناس أموالهم إلا في السمن والعسل والله إني لولا أن للجرة ثمناً لما كسرتها إلا على قبره! قالوا: فخرج فوق أبيه وما كنا نظن أن فوقه مزيداً! (الجاحظ، البخلاء، ص ٣٥). ولا ينبغي أن نعتقد أنّ سلوك ابن خالد هذا استثناء في كتاب البخلاء من قبيل الشاذ الذي يُحفَظ ولا يُقاس عليه، إلّا أن نادرة أخرى تثبت أنّ هذا السلوك ليس غريبا عن أبناء بخلاء آخرين سرعان ما يعلنون بعد ممات آبائهم عن عدم رضاهم عنهم لا لأنّهم اختاروا البخل مذهبا لهم وإنّما لأنّهم لم يتمثّلوا مبادئه على أحسن ما يكون، فيخرجون على آبائهم ويُغالون في البخل، وهذا ما تثبته نادرة أخرى عن بخيل "صار إماما في البخل " كما يخبرنا عنه الجاحظ: " لما مات وظنوا أنهم [أهله] قد استراحوا منه قدم ابنه فاستولى على ماله وداره. ثم قال: ما كان أدْم أبى فإن أكثر الفساد إنما يكون في الإدام. قالوا: كان يأتدم بجبنة عنده. قال: أرونيها. فإذا فيها حز كالجدول من أثر مسح اللقمة! قال: ما هذه الحفرة قالوا: كان لا يقطع الجبن وإنما كان يمسح على ظهره فيحفر كما ترى! قال: فبهذا أهلكني وبهذا أقعدني هذا المقعد! لو علمت ذلك ما صليت عليه! (الجاحظ، البخلاء، ص ٨٦) .قالوا: فأنت كيف تريد أن تصنع قال: أضعها من بعيد فأشير إليها باللقمة! ولا يعجبني هذا الحرف الأخير لأن الإفراط لا غاية له(الجاحظ، البخلاء، ص ٨٦-٨٧). لا شكّ في أنّ هذه النادرة هي من نسج الخيال الشعبي ولا علاقة لها بالواقع، هذا إذا لم يكن الجاحظ مبدعها تشنيعا بالبخل وأصحابه حتّى وإنْ لمّح بما يُرجّح أنّها مبالغة أدبيّة على سبيل النكتة " وإنما نحكي ما كان في الناس وما يجوز أن يكون فيهم أو حجة أو طريفة. فأما مثل هذا الحرف فليس مما نذكره. وأما سائر حديث هذا الرجل فإنه من البابة"(الجاحظ، البخلاء، ص ٨٧)..

تكشف هاتان النادرتان على أنّ اغتيال ابن البخيل لأبيه في المعنى الذي يعطيه التحليل النفسي لاغتيال الأب، دلالة على التخلّص من عبئه الرمزي من أجل الانفصال عنه والاستقلال بشخصيّة متفرّدة[١] لم يتحقّق كلّية بأن يتحوّل الابن إلى نقيض والده تماما دون أن يعني ذلك أنّه لم ينتصر عليه ليصير بطلا[٢]. على العكس من ذلك لا نراه يتجاوزه إلّا

[١] هو في التحليل النفسي الاجتماعي اغتيال رمزي وليس اغتيالا ماديا بالطبع : انظر حول هذه المسألة:
Susanne Kacirek, « La question du meurtre du Père originaire entre Freud et Yung », in *Topique (Revue freudienne)*, 2002, N79, pp 191-205
وانظر كذلك:
Silvia Lippi, « Icare et le père», in *Cahiers de Psychologie Clinique*, 2011, N36, pp.61-75

[٢] البطل كما يقول فرويد مستشهدا بقولة لسلفادور دالي (Salvador Dali) هو الذي يعارض السلطة الأبويّة وينتصر عليها. انظر حول استلهام فرويد لهذه القولة:
René Tostain, *Le temps d'aime*r, Paris Denoël, p.83
وحول نظرية فرويد في قتل الابن الرمزي لأبيه:
S. Freud, *Totem et Tabou*, Paris, Gallimard, coll. NRF, 1993, p.310.

ليرث الأهمّ في سلوكه وشخصيته، لا ينفيه إلّا ليثبته ولا يتنكّر له إلّا ليثبت له وفاءه على مبدئه. وهو يدفن والده كان ابن اليزيدي في ذات الوقت وبنفس الفعل يخلّده وهو خالد باسمه ذاته، اسما على مُسمّى. لفعل الدفن دلالتان واحدة ماديّة وأخرى رمزيّة تتمثّل في دفن مساوئه وما اعتبره ابنه تبذيرا وفسادا منه ولا ينبغي أن نظّن أنّه وهو يكفنه في ثيابه "خلقانه " ويغسّله بماء البئر المالح دون أن يلحد له قد فعل ذلك للتعبير عن سخطه عليه وإنّما فعل ذلك تقشّفا واقتصادا في النفقة لكون الماء العذب والكفن وحفر القبور يتطلب نفقات لا يراها غلاة البخلاء إلّا تبذيرا وإسرافا والغرض من كلّ ذلك أن يثبت لأبيه أنّه وفيّ لمبادئه أكثر منه. لا نصل إلى السخط على الأب في النادرتين والإعلان عن القطيعة معه إلّا عندما يعود الابن في النادرة الأولى إلى البيت من الجنازة ويصرخ: " لو لم يكن للجرّة ثمن لما كسّرتها على قبره" وفي النادرة الثانية عندما يصرّح ناقما وإنْ بأقلّ حدّة وعنف من ابن اليزيدي" فبهذا أهلكني وبهذا أقعدني هذا المقعد! لو علمت ذلك ما صليت عليه". ولكنّها ليست قطيعة فقط مع الأب وإنّما قطيعة أيضا مع الموروث الثقافي لا فقط بالضرب بعرض الحائط برّ الوالدين ورحمتهما وعدم القول لهما: " أفّا" ونهرهما أحياء وأمواتا وإنّما بالتنكّر لتقاليد المسلمين في الدفن والحفاظ على حرمة الأموات والصلاة عليهم مهما كانت ذنوبهم وترك البتّ في هذه الذنوب لخالقهم.

لكنّ هذه القطيعة تظلّ نسبيّة وليست جذريّة كما قلنا. إنّها قطيعة جدليّة من الانفصال والاتصال وإذا كان لا أحد بإمكانه أن يخمّن ماذا سيكون عليه ردّ الآباء المعتدلين في بخلهم على أفعال أبنائهم والخوارج عليهم من غلاة البخلاء– لأنّ لا أحد مات وعاد ليقصّ علينا ما حدث له بعد موته – فإنّه على الأرجح أن يكون مطمئنا في قبره ولا يشعر إذا كان أبا مثاليا يريد الخير لابنه أكثر ممّا يريده لنفسه حتّى وإنْ كان ذلك على حساب راحته بالخيبة والجحود من ابنه كما يمكن أن يشعر به لو علم أنّه انتقل إلى صفّ أعدائه من المبذّرين وإخوان الشياطين. مغالاة الابن في اعتناق مذهب أبيه حتّى لو كلّفه ذلك أن يقسو عليه ميّتا ويهدّد بكسر الجرّة على قبره أو بالتعبير عن الندم على الصلاة عليه وكأنّه لا يستحقّ أن يُصلّى عليه كسائر الأموات المسلمين من شأنه أن يثلج صدره ويجعله فخورا بابنه وهو شهادة ليس ثمّة أفضل منها على نجاحه وتوفيقه في تربيته على أخلاقه حتّى وإنْ اعتقد الشامتون فيه والمعرضون لمذهبه أنّه دلالة على فشله وعلى مهانة عظيمة وعقاب شديد لحقاه من أقرب الناس إليه فلذة كبده!

S. Freud, « Psychologies des Foules et analyse du moi », in *Essais de psychanalyse*, Paris Payot, 1981, p. 173

خاتمة

لقد حاولنا في هذا المقال أن نُلِمّ من خلال كتاب البخلاء للجاحظ بعلاقة البخيل بأهله وزوجته وعياله من كلّ جوانبها، فلم نترك كبيرة ولا صغيرة في هذا المُؤَلَّف إلّا ونظرنا فيها ودقّقنا في مضامينها واجتهدنا في تحليلها وتأويلها. ولا شكّ أن قارئ هذا المقال يلاحظ أنّ المادة التي تشمل الأهل والأقارب ليست بمثل غزارة المادة التي تتعلّق بالزوجة والعيال وهذا يعود إلى غلبة الأخبار والنوادر التي يكون محورها زوجة البخيل وأبناءه في كتاب الجاحظ، لعلّ ذلك يعود إلى كونهما أقرب الناس إليه والأكثر احتكاكا به في المعيش اليومي من كلّ أقاربه الآخرين وأفضلهم من أجل قيادتنا لفهم فلسفة البخيل الاجتماعيّة. وفي الحقيقة، فإنّ نيّتنا في البداية كانت تتّجه إلى التركيز في هذا المقال على الزوجة والعيال دون غيرهما للنظر في الصورة التي ترتسم لدى قرّاء بخلاء الجاحظ عن النواة الأولى للاجتماع البشري، ألا وهي العائلة الصغرى المُشكّلة من زوج وزوجة وأبناء ولكنّنا لاحظنا أنّ المادة التي تتعلّق بالعائلة الكبرى، أي بالأهل على وجه العموم رغم ندرتها جديرة بالاهتمام لأنّها تسمح لنا بالتدرّج من العام إلى الخاص ومن الكلّ إلى الجزء ضمن دائرة تضيق شيئا فشيئا يقع الانطلاق فيها من صلة الرحم على وجه العموم وصولا إلى الزوجة والعيال. لا شكّ أنّ كتاب البخلاء هو مدوّنة أدبيّة بالأساس من إبداع رجل مشهود له بعبقريّته الأدبيّة ولعل أهمّ ما يميّز أدبيّة هذا الكتاب هو احتضانه لجنس أدبي هو النادرة الساخرة والهزليّة بطبعها التي ترفّه عن القارئ وتضحكه. وهذا ما نعيه جيّدا ولكننّا أهملناه عن قصد ليس فقط لأنّه وقع الاهتمام به في ما سبق مقالنا من بحوث ودراسات فحسب، وإنّما كذلك لكون هذا المبحث لأهمّيته البالغة يتطلّب مقالا مستقلّا بذاته يعيد النظر في هذه المسألة من منظار جديد بُغية الوصول إلى نتائج مختلفة عن النتائج التي توصلت إليها البحوث السابقة. لكن كتاب البخلاء بقدر ما هو أدبي، هو مدوّنة كلاميّة وفلسفية وثقافيّة في المفهوم الشامل للكلمة يوفّر مادة اتنولوجيّة وفلكلوريّة تتعلّق بالجماعة من جهة وبالشخصيّة والتركيبة النفسيّة لفرد مخصوص: البخيل من جهة أخرى، علاوة على ما يوفّره من مادة ثريّة تتعلّق بالاجتماع البشري في ركيزته الأساسيّة: العائلة وهذا ما حاولنا التركيز عليه في هذا المقال. غير أنّه ثمّة مواضيع أخرى في كتاب البخلاء انكشفت لنا من خلال هذا البحث جديرة باهتمام الباحثين ولم تأخذ حظّها من العناية على حدّ علمنا لعلّ أهمّها نظرة البخيل إلى المقدّس التي ننوي الانشغال بها في مقال قادم لنكشف عن كيفيّة توظيف البخلاء للدين، لا سيما تأويلهم للنصّ القرآني والحديث النبوي الشريف في الدفاع عن أنفسهم وفي صراعهم مع خصومهم مع ما يتخلّل ذلك من حجاج فقهيّ وجدل كلامي في العقيدة ينقل لنا صدى الصراعات المذهبيّة بين المعتزلة وخصومهم في عصر الجاحظ.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

١. الجاحظ، البخلاء (وضع حواشيه مخمّد عبد الكريم النمري)، الدار البيضاء، مكتبة السلام الجديدة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص ٧

٢. الجاحظ، رسالة الحسد والمحسود في رسائل الجاحظ السياسيّة، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٧، ص ١١٥.

٣. الجاحظ، رسالة العثمانيّة في رسائل الجاحظ السياسيّة، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٧.

٤. الجاحظ، "كتاب مفاخرة الغلمان والجواري"، في الرسائل السياسيّة، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٩.

المراجع باللّغة العربيّة:

٥. ابن أمبيريك (أحمد)، صورة بخيل الجاحظ الفنية، تونس، الدار التونسيّة للنشر، ١٩٨٥.

٦. بيلا (شارل)، فصل نادرة (بالفرنسيّة)، دائرة المعارف الإسلاميّة، الطبعة الثانية، ج٧.

٧. جبر (جميل)، الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، بيروت، منشورات دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٤.

٨. الجويلي (محمد)، شارل بيلا صديق الجاحظ، معهد العالم العربي باريس- جائزة الملك فيصل، بيروت والدار البيضاء، المركز الثقافي للكتاب، ٢٠١٩.

٩. الجويلي (محمّد)، نحو دراسة في سوسيولوجية البخل، تونس، الدار العربيّة للكتاب، ١٩٩٠.

١٠. خفاجي (محمد عبد المنعم)، أبو عثمان الجاحظ، بيروت، دار الكتب اللبناني، ١٩٨٢.

١١. الطبري (أبو جعفر محمّد)، تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربيّة والإسلاميّة، بدار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ج٢٠، القاهرة، ٢٠٠١.

١٢. طه النجم (وديعة)، الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، بغداد، منشورات دار الجاحظ للنشر، ١٩٨٢.

١٣. القرآن الكريم.

١٤. القرطبي (محمد بن احمد الانصاري)، تفسير القرطبي (الجامع لاحكام القرآن)، مؤسّسة الرسالة، ج١٥، ٢٠٠٦.

المراجع باللّغة الأجنبيّة:

15. Alain Gibeault, «Symbolique de l'argent et psychanalyse», (Fait partie d'un numéro thématique : L'argent), in *Communications*, Année 1989, 50, p 69.
16. André Masson, Anne Gotman, « L'un transmet, l'autre hérite... », in *Économie & prévision*, Année 1991, 100-101, pp. 209-211
17. Belmont Nicole, Godfrey Lienhardt, «Social Anthropology», In *Annales*, Année 1967, 22-3, pp. 667-671
18. Boquet Guy, « Shakespeare and the morality of money, Social Research», in *Annales*, Année 1971, 26-5, pp.1022-1023
19. Charles Pellat, « al- Ǧāḥiẓ : Les nations civilisées et les croyances religieuses», in *Journal asiatique*, CCLV, Paris, 1967 , p.67, p72
20. Charles Pellat, «al- Ǧāḥiẓ et les peuples du sous-continent » in *Oientalia Hispanica*, Sive studia F .M. Pareja octogenario dicata à Leyde 1974), p. 545
21. Charles Pellat, *Introduction de la traduction du Livre des Avares en Français*, Beyrouth, commission internationale pour la traduction des chefs-d'œuvres-Paris, Maisonneuve, 1951.
22. Charles Pellat, *Le Milieu basrien et la formation de Gahiz*, Paris, La Librairie d'Amerique et d'Orient, 1953.
23. Charles Pellat, *Une vie d'Arabisant,* Paris, Edition de la Librairie Abencerage, A. Ghozzi, 2007.
24. Christophe Marchand, « Épargne et équité entre les générations », in *Revue d'économie financière*, Année 1997, 42, pp. 159-175
25. Daniel Vidal, « De la secte: un discours pour la forme », in *Sociologie du travail*, Année 1982, 24-1, pp. 63-84
26. Fadwá Mālṭī Dūǧlās, *Structures of Avarice, The Bukhala in Arabic medieval literature*, Leiden , J. Brill, 1985
27. Frédéric Rognon, L*es passions Textes expliqués – sujets analysés*, Paris, Le philosophe (sur compte d'auteur).
28. Gérard Chalendar, «Discours du pouvoir, discours idéologique », in *Raison présente*, Année 1976, 38, pp. 71-78
29. Gianna Pomata, « Histoire des femmes et "gender history " », (Traducteur: Pascale de Mezamat), in *Annales*, Année, 1993, 48-4, pp. 1019-1026
30. Hamès Constant, « La Sexualité en Islam», in Archives de *Sciences Sociales des Religions*, Année 1976, 41, pp. 205-206.
31. Henri Wallon, « Les étapes de la personnalité chez l'enfant », in *Enfance*, Année 1963, 16-1-2, p.77

32. Hubert Vincent, « Enseigner, dresser », in *Revue de recherches en éducation*, Année 1994, 12, pp. 127-128
33. J.-P. Leyens, « L'identification comme processus d'apprentissage », in *L'Année psychologique*, Année 1968, 68-1, pp. 251-252
34. Jacques Houdai, Borrie W. D. "The Growth and Control of World Population", in *Population*, Année 1971, 26-4, p. 766.
35. Janine Fillion-Lahille, « La colère chez Aristote », in *Revue des Études Anciennes*, Année 1970, 72-1-2, pp. 49-50
36. Jean Pierre Benoit, Didier Lauru, « Introduction. Les phobies : même pas peur ! » in *Enfances et Psychologie* , N 65,pp. 8-11
37. Jean-Claude Schmitt, Jérôme Baschet, « La sexualité du Christ», in *Annales*, Année 1991, 46-2, pp. 337-346.
38. Jean-Michel Adam, « L'argumentation dans le dialogue», in *Langue française*, Année 1996, 112, pp.31-49
39. Jean-Pierre Rosenzweig, «Comment se structure l'idée de loi chez l'enfant dans la famille », in *Enfance*, Année 1992, 46-3, pp. 181-187
40. Legrand Georges J. Rogues de Fursac, « L'avarice. Essai de psychologie mor-bide », in *Revue Philosophique de Louvain*, Année 1912, 73, pp. 146-147
41. M-J F, "Family Planning and Population Programs", in *Population*, Année 1967, 22-5, pp. 934-935
42. Mohamed Cherkaoui ; « Le réel et ses niveaux : peut-on toujours fonder la macrologie sur la micrologie?» in *Revue Française de Sociologie*, Année 1997 38-3 pp. 497-524.
43. Nicole Avril, *Dictionnaire de la passion amoureuse*, Plon, Paris, 2006.
44. Otto Gerhard Oexle, « Les groupes sociaux du Moyen Âge et les débuts de la sociologie contemporaine », in *Annales*, Année 1992, 47-3, p. 755
45. Patrick Artus, «L'épargne: évolution, flux, comportements», in *Revue d'économie financière*, Année 1997, 42, pp. 27-55
46. Pierre Bourdieu, « Le langage autorisé : Note sur les conditions sociales de l'efficacité du discours rituel », in *Actes de la Recherche en Sciences Sociales*, Année 1975, 1-5-6, pp. 183-190
47. Pigler Agnès, Jean-Michel Charrue, «Illusion de la dialectique et dialectique de l'illusion. Platon et Plotin », in *Revue Philosophique de Louvain*, Année 2006, 104-1, pp. 196-198
48. Rachel Arié, « Ibn Hazm et l'amour courtois », in *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, Année 1985, 40, pp. 75-89.
49. René Tostain, *Le temps d'aimer*, Paris Denoël.

50. Robert Sauzet, « Marcel Bernos. Sexualité et religion », in *Revue de l'histoire des religions*, Année 1989, 206-4, pp. 425-426
51. Roger Chartier, «Différences entre les sexes et domination symbolique (note critique) », in *Annales*, Année 1993, 48-4, pp. 1005-1010
52. S. Freud, « Psychologies des Foules et analyse du moi », in *Essais de psychanalyse*, Paris Payot, 1981, p. 173
53. S. Freud, *Totem et Tabou*, Paris, Gallimard, coll. NRF, 1993.
54. Sforza, John. Swing It! *The Andrews Sisters Story*, University Press of Kentucky, 2000.
55. Silvia Lippi, «Icare et le père», in *Cahiers de Psychologie Clinique*, 2011, N36, pp.61-75
56. Stein MB, Stein DJ, « Social anxiety disorder », in *Lancet*, vol. 371, no 9618, ٢٥-١١١٥pp. ،٢٠٠٨
57. Susanne Kacirek, « La question du meurtre du Père originaire entre Freud et Yung », in *Topique* (*Revue freudienne*), 2002, N79, pp 191-205
58. Ullrich Langer, « L'avarice dans l'éthique (plaisir, liberté, prudence) », in *Seizième Siècle*, Année 2008, 4, pp. 61-62